

مدخل إلى الإمامة

السيد كمال الحيدري



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين .
تطلّ هذه الدراسة على موضوع الامامة من خلال التمييز بين منهجين ينطلق كلُّ منهما من نظام فكري يختلف عن الآخر ومن ثمّ يفرز كل واحد منهما مفهومه الخاص للامامة .

يتعامل المنهج الاول مع الامامة كمفهوم سياسي بحيث لا تزيد على الخلافة أو القيادة السياسية للامة ، ويجردها من كل ما عدا ذلك من أبعاد وجودية وعلمية ومعنوية .

أما المنهج الثاني فيتعاطى وإياها على أساس شامل يتخطى البعد السياسي من دون أن يلغيه ، ليلتقي مع أفقها القرآني الرحيب من حيث أراد لها الاسلام أن تكون ظاهرة وجودية دائمة تدخل في نظام الهداية الخاص بحيث يحتاج إليها النوع الانساني في كل لحظة ، ولا تخلو منها الارض طرفة عين ، بل ولا ينبغي ذلك ولا يُعقل .

والحديث عن المنهج هنا لا يقصد منه معناه الاجرائي كطريقة في البحث ، بل المراد به نظام في التفكير، ومن ثم فنحن مع هذين المنهجين أمام نظامين فكريين متغايرين ، وبالنتيجة أمام ضربين من الامامة مختلفين .

النظام الاول وهو يقصّر الامامة على بعدها السياسي في قيادة الدولة والمجتمع إنّما يفرغها من مدلولاتها القرآنية ، على حين يتعاطى معها النظام الفكري الثاني بكامل أبعادها القرآنية فيما تنهض به من دور وجودي وهدائي ، وعلمي وسياسي وتربوي ، فينتهي بها إلى أن تكون ضرورة وجودية ، وقانوناً في الهداية الخاصة لا يعقل تخلفه ، وظاهرة دائمة تلازم الخليقة إلى أن تبلغ الانسانية كمالها المنشود ، وتتحقق الغاية من وجود الانسان ، ومن بعث النبوات والرسل الكرام .

وهذا هو مغزى ما أشارت إليه هذه الدراسة الموجزة من عجز المنهج الكلامي بوجهيه القديم والحديث على أن يرتقي بالامامة إلى هذا المستوى ، بالاخص مع ما خالطه - في الاتجاه الامامي الشيعي الاثني عشري - من تأثيرات جاءت إليه من المنهج الكلامي للفريق الآخر ، بحيث بدا الاتجاه الامامي وكأنه يخوض معركة الدفاع عن الامامة على ساحة الفريق الآخر ، متورطاً بإشكالياته ، وأسنلته ومنطلقاته .

وهذه نتيجة طبيعية للنهج الدفاعي ولغياب التأسيس .

بإزاء ذلك اقترحت الدراسة أن يتم الانطلاق في بحث الامامة من منهج آخر أطلقت عليه المنهج القرآني .

والحصيلة التي خرج بها هذا المنهج ، أنّ الامامة :

1 - دائمة لا تختص بعصر دون آخر .

2 - متفوّمة بالنص الخاص ومحصورة مصداقاً بمن حدّدهم النص .

3 - مژودة بمؤهلات تتناسب مع مسؤولية الامام ، من عصمة وعلم خاص وولاية وغير ذلك .

وكنتيجة منطقيه وطبيعية لهذا المنهج والنظام الفكري الذي يكمن وراءه ، لا بدّ وأن يكون النوع الانساني الآن معاشياً لوجود إمام قائم ، أثبتت بحوث الامامة الخاصة أنه هو الامام المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السلام ، على ما استكشف عنه تفصيلاً هذه الدراسة في محاورها الاربعة .

أخيراً أمل أن تسدّ الدراسة بعض حاجات الساحة إلى هذا اللون من البحث ، وأن تكون قد وفّقت لتسليط الاضواء على الاسئلة المثارة حول ذلك .

وحيث أكتب هذه الكلمات في ظلال ذكرى المولد النبوي الشريف ، أمدّ إلى الله سبحانه يد الضراعة والابتهال أن يتقبل ما في هذا القليل من جهد مرفوعاً ثوابه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، راجياً التفضل بالقبول.
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب..

كمال الحيدري

ربيع المولد 1421 هـ

تمهيد

لم يعبأ العديد ممن كتب في بحث الامامة من علماء مدرسة أهل البيت ببعض الامور المنهجية التي أثّرت على سير بحوثهم ونتائجها .

ومن أهمها عدم الالتفات إلى أثر التراث الكلامي لاتباع الخلفاء في التراث الكلامي لاتباع أئمة أهل البيت (عليهم السلام) .
مما أدى بهم إلى أن يؤخروا مواضيع أساسية من حقها أن تتقدّم ، وتأخذ موقعها المناسب من البحث والتحقيق والتدقيق ، وبرزوا بدلاً عنها مواضيع ثانوية لا تشكّل المحور الاساسي لمثل هذه الابحاث .

وعلى هذا لا بدّ من التعرّض إلى بيان هذه النكته المنهجية ، وإلى تحديد المنهج المختار في بحث الامامة ومحاوره الاساسية ولو على نحو الاختصار .

تحرير محلّ النزاع

انطلقت المدرسة السنية من نقطة مركزية في تكوين نظامها الفكري لفهم نظرية الامامة تمثّلت في أنّ الامام أو الخليفة ، يعني القائد والزعيم السياسي المسؤول عن إدارة شؤون الناس على مختلف الأصعدة والمستويات .

ثمّ إنهم عندما أرادوا أن يفهموا شرائط وموانع هذه الامامة - التي هي الخلافة باصطلاح علم الكلام السني - حاولوا تأسيس ذلك من خلال الواقع الذي أوجده الخلفاء الثلاثة الاوائل ، فصارت بصدد إقامة الادلة من الطرق المختلفة العقلية والنقلية لاثبات صحة ما انتهت إليه الخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فأرادت أن تعرف الحقّ من خلال معرفة الرجال .

« وحيث لم يتجاوز دور الامام في النظام الفكري لهذه المدرسة تخوم القيادة والزعامة السياسية ، فقد كان من المنطقي ، بقطع النظر عن دلالات الوحي الالهي ، أن يولّوا وجوههم صوب نظرية الشورى وانتخاب أهل الحلّ والعقد ، وذلك :

أولاً : لأنّ هذه النظرية أقرب إلى الذوق العرفي .

ثانياً : إنّ الحكومة شأن من شؤون الناس وعهد بينهم وبين الامام القائد ، وإذ يكون الامر كذلك ، فلا بدّ أن يكون للامّة دور في إدارة الشؤون والنهوض بها ، لأنّ القرآن ينص (وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [1] ، ومن الواضح أنّ الامامة بمعنى القيادة داخلية في أمر الناس ، لهذا اتجهت المجتمعات البشرية صوب نظرية الانتخاب لا النص .

وكان مما ترتب على تلك النواة المحورية في تأسيس نظرية الامامة ، أنهم التزموا بانقطاعها وعدم دوامها ، لأنّ المفروض ، أنّ هذا المنصب لا يتحقّق لاحد إلا بعد الانتخاب والبيعة .

ومع عدم تحقق ذلك لا يحق لاحد أن يتصدى لهذه المسؤولية ويرغم الناس على القبول .
وعندما انتقلوا إلى الشروط التي لا بد من توافرها ، فيمن يتصدى للنهوض بهذا الدور ، لم يجدوا مناصاً من الالتزام ، بأنه لا يشترط أن يكون معصوماً ، بل تكفيه من الناحية السلوكية العدالة بمعناها المتداول في البحث الفقهي ، ومن ناحية التأهيل العلمي تكفيه قدرة علمية ترفعه إلى مستوى أداء المسؤوليات التي أنيطت به .
وهكذا انتهت عناصر النظام الفكري للمدرسة السنية في الامام إلى المكونات التالية بشكل عام : 1 - لا تعني الامامة غير الحكم والقيادة السياسية .
2 - تتم هذه العملية بالانتخاب والشورى .
3 - إنها منقطعة ليست دائمة .
4 - لا يشترط فيها غير العدالة والعلم بمعناهما المألوف .
ذلك كان التسلسل الذي وجه العملية الفكرية لبناء نظرية الامامة في التصور السني .

النتائج الخطيرة

عند الانتقال إلى الجانب الآخر من المشهد ، نلمس أن المنهج الكلامي في المدرسة الشيعية ، لم يبادر في الاغلب إلى تحرير محل النزاع وتحديد الخلاف بين المدرستين ، بل دخل إلى تضاعيف البحث مباشرة ، فأشهر نظرية النص بإزاء نظرية الشورى ، وذهب إلى أن الامامة متصلة ومستمرة إلى أن يرث الله الارض ومن عليها ، في مقابل أولئك الذين أنكروا ديمومتها ، كما اشترط العصمة المطلقة على مستوى الاعتقاد والاخلاق والسلوك قبل البلوغ وبعده ، والعلم الكامل التام من غير كسب .
لكن لما كانت انطلاقة الطرفين المتنازعين ، تبدو وكأنها تبدأ من نقطة شروع واحدة ، فقد وجد بعض أن هناك ضرباً من التهاوت وعدم الانسجام بين المسؤولية الملقاة على عاتق الامام ، وهي الزعامة والقيادة السياسية ، وبين الشروط والمواصفات التي ذُكرت له .
فالشروط تبدو أوسع بكثير من المهمة التي ينهض بها الامام .
ربما هذه النقطة والمفارقة التي استتبعتها ، هي التي تفسر لنا التداخيات التي راحت تتهاوى إليها بعض الكتابات المعاصرة حتى داخل الصف الشيعي ذاته .
فمن هؤلاء من تجاوز تخوم الشك إلى حد رفض نظرية النص في الامامة ، وما يستتبع ذلك من لوازم ، ومنهم من احتمل أن العصمة تكفي بحد معين لا تتجاوزه ، لعدم الحاجة إلى ما هو أزيد من ذلك .
وفريق رفض العصمة بنحو كلي ، محتجاً أنها لو كانت شرطاً أساسياً في القائد ، فلماذا لم يلتزم أصحاب هذه النظرية بهذا الشرط إلى آخر الشوط ؟ بل تخلوا عنه واكتفوا بالقول بأنه يكفي في الامام - أي القائد - أن يكون عادلاً لا أكثر في زمن الغيبة .
كما أن منهم من ذهب إلى أن النزاع في من هو الاحق بالامامة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزاع تاريخي عقيم لا طائل من ورائه .
ومنهم من راح يتساءل عن الفائدة المترتبة على وجود إمام غائب عن الانظار ليس بمقدوره أن يواجه مشكلات العصر ويجيب عما يثيره من تحديات ، ويتحمل مسؤوليته فعلاً ، فإن وجود مثل هذا الامام يعد لغواً لا فائدة منه ، وهو محال على الحكيم سبحانه .

لقد نشأت هذه التساؤلات والاستفهامات على أرضية تلك الانطلاقة التي أسس لها نظام الفكر السنّي في فهم الامامة ، وتبعتها بعض الاتجاهات في الكلام الشيعي « [2] » .

الامامة القرآنية

إنّ الذي نستوحيه من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، والروايات الصحيحة الواردة عن أنمة أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم عدل القرآن العظيم كما هو نص حديث الثقلين المتواتر سنداً ومضموناً ، أنّ الامامة التي تعتقد بها مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) تختلف اختلافاً جوهرياً عن دور الامامة التي تنحصر في الخلافة والحكم ، وذلك لأنّ هذا الاتجاه يرى أنّ للامامة دوراً فوق دور القيادة والزعامة ، وهو الدور الذي بيّنه القرآن الكريم من خلال قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [3] ، وأشار إليه بقوله لإبراهيم الخليل (عليه السلام) في قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) [4] ، وهي التي عبّر عنها الامام الرضا (عليه السلام) : « هل يعرفون قدر الامامة ومحلّها من الامّة ، فيجوز فيها اختيارهم ، إنّ الامامة أجلّ قدرأ ، وأعظم شأنأ ، وأعلى مكانأ ، وأمنع جانبأ ، وأبعد غوراً ، من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بأرائهم ، أو يقيموا إمامأ باختيارهم .

إنّ الامامة خصّ الله عزّوجلّ بها إبراهيم الخليل (عليه السلام) بعد النبوة والخلة مرتبة ثالثة وأشاد بها ذكره ، فقال : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) [5] .

وهي التي قال عنها الامام السجّاد (عليه السلام) : « نحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الارض إلاّ بإذنه ، وبنا يمسك الارض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزل الغيث ، وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الارض ، ولولا ما في الارض منّا لساخت بأهلها » [6] .

لذا عندما يُسأل الامام الباقر (عليه السلام) ويُقال له : لاي شيء يحتاج إلى النبي والامام ؟ يقول (عليه السلام) : « لبقاء العالم على صلاحه .

وذلك أنّ الله عزّوجلّ يرفع العذاب عن أهل الارض إذا كان فيها نبي أو إمام ، قال الله عزّوجلّ : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) [7] .

من هنا عبّر الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) عن هذا الدور لاهل بيته (عليهم السلام) بقوله : « النجوم أمان لاهل السماء ، وأهل بيتي أمان لاهل الارض ، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون ، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الارض ما يكرهون » [8] .

ولعلّ تشبيه انتفاع الناس بالحجّة في زمان غيبته ، عندما يُسأل الامام الصادق (عليه السلام) : فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور ؟ قال (عليه السلام) : « كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب » [9] يشير إلى حقيقتين أساسيتين :

الاولى : أنّ الانتفاع به لا يختص بعالم التشريع والاعتبار ، بل يتجاوز ذلك إلى عالم التكوين .

الثانية : أنّ هذا الامر غير محسوس ومرني للناس ، بل يرتبط بعالم الغيب لا نشأة الشهادة .

وتأسيساً على ما تقدّم فنحن نعتقد أنّه لا يمكن الوقوف على فلسفة ما اشترطناه في الامامة من العصمة والنص والديمومة والعلم الخاص ، إلاّ إذا أدركنا المهام والمسؤوليات التي أنيطت بدور الامامة والخلافة في النظرية القرآنية .

وخصوصاً ما نستخدمه عليه بـ « الدور الوجودي » للامام (عليه السلام) ، وهو غير « الدور التشريعي » و« القيادة السياسية » و« القدوة الصالحة » .

بل إن صحَّ التعبير فإنَّ هذه الأدوار إنّما هي ثمرات ذلك الأصل الذي عبّر عنه القرآن الكريم بـ « الشجرة الطيبة » التي (

أصلها ثابتٌ و فرعها في السماء * نُوتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (10) .

ومن الواضح أنّ هذا البحث لا يتسع للدخول في بيان تفاصيل هذه النظرية القرآنية ، لكن نقول على نحو الاجمال والاشارة ، أنّ هناك طريقتين لفهم هذه الحقيقة القرآنية ، يختلف أحدهما عن الآخر في الآثار والنتائج المترتبة عليهما :

الطريق الأوّل : أن نرجع إلى القرآن والسنة المباركة لنرى ماذا يقولان عن حقيقة الامامة وشرائطها ، بقطع النظر عن المسؤوليات والوظائف التي أقيمت على عاتقها .

الطريق الثاني : وهو الاسلوب الذي اتبعه كثير من علماء الكلام من الفريقين ، وهو الذي سمّي في كلماتهم بالدليل العقلي لاثبات الامامة وشرائطها .

ومنطلقه أن تحدّد المسؤوليات الاساسية التي أقيمت على عاتق النبي أو الامام ، ثم يلتزمون بالشرائط التي لا بدّ من توافرها في الشخص المسؤول عن ذلك ، من خلال معرفة حدود تلك الوظائف ، ومدى المسؤوليات التي ينهض بها الامام (11) .

ويمكن التعبير عن الطريق الأوّل بالمنهج اللّمي الذي يتحرّك من العلة إلى المعلول لاننا نبحث فيه الامامة في نفسها لتتعرّف على الامامة القرآنية التي وردت في قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) (12) وقوله تعالى : (وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بَيِّنَاتًا يُوقِنُونَ) (13) ، وما هو المراد من الخلافة كمصطلح قرآني لا كلامي ، كما ورد في قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ، ثم ننقل إلى بيان شرائطها وموانعها ، ثم نتوقف عند المسؤوليات والمهام التي أوكلت إليها .

كما يمكن التعبير عن الطريق الثاني بالمنهج الاتي الذي يتحرّك من المعلول إلى العلة ، لاننا ننتهي فيه من خلال المسؤوليات الملقاة على عاتق الامام إلى الشرائط الواجب توافرها فيه ، وسوف نحاول في هذا البحث اختيار الطريق الأوّل في طرح بعض مسائل الامامة الاساسية :

أولاً : هل ظاهرة الامامة مستمرة أم منقطعة ؟

ثانياً : هل الامامة على فرض استمرارها تنحصر في عدد معين أم لا ؟

ثالثاً : إذا كانت منحصرة في عدد معين ، فمن هم هؤلاء الانمة ؟

رابعاً : إذا تعيّن الامام الاخير منهم ، فهل هو حي الآن ، أم سيولد بعد ذلك ؟

ولا يخفى أنّ بعض عناصر هذه المسائل تدخل في بحوث الامامة العامة ، وبعضها الآخر في بحوث الامامة الخاصة .

توضيح ذلك : أنّ المنهج الذي نقترحه لفهم الامامة يقوم على أساس البحث في مستويين : الأوّل : الامامة العامة .

الثاني : الامامة الخاصة .

« وربما كانت أفضل وسيلة لفهم المراد من هذين المستويين ، مقارنة الامامة بالنبوة منهجياً ، فمن المعروف أنّ المنهج الكلامي يدرس النبوة على مرحلتين :

الاولى : النبوة العامة : وهذه تدور حول أسئلة من قبيل : ما حاجة البشر إلى النبوة وبعث الرسل ؟ ولماذا لا يمكن للبشرية أن تستغني بعقلها وتكتفي به في تحقيق الغاية التي خلقت من أجلها ؟ وما هي شروط النبي العامة ؟ حيث انتهى البحث إلى

ضرورة أن يكون أي نبي مبعوث من السماء ، معصوماً مؤيداً بمعجزة ، مسدداً بالبيّنات ، بحسب التعبير القرآني ، إلى غير ذلك من البحوث المتداولة في علم الكلام .

الثانية : وتحوم بحوثها حول أسئلة خاصة مثل : من هو النبي ؟ ما هي طبيعة الاوضاع الزمانية والمكانية في عصر بعثته ؟ ما هي المعجزة التي رُود بها ؟ لماذا هذه المعجزة بالذات دون سواها ؟ هل يُعد من أولي العزم أم لا ؟ هل هو رسول ونبي أم نبي وحسب ؟ إلى غير ذلك من الاسئلة التي تنصب حيال نبوة نبي بعينه ، كنبوة محمد خاتم الانبياء (صلى الله عليه وآله) مثلاً .

وكذلك تتم معالجة الامامة في المنهج المقترح من خلال خطوتين أو مرحلتين ، الامامة العامة والامامة الخاصة . فالمرحلة الاولى تضطلع بالبحث عن المسؤوليات التي أنيطت بالامامة بشكل عام ، وتدرس المكونات الاساسية لنظرية الامامة بإطلاق أسئلة مثل : هل الامامة منصوطة أم لا ؟ هل يشترط في الامام أن يكون معصوماً أم لا ؟ هل ينبغي أن تكون الامامة دائمة أم منقطعة ؟ إلى غير ذلك من العناصر الاساسية التي تؤلف الاصول العامة لبحث الامامة . وهذه المرحلة ترتبط بالمفهوم العام للامامة ، ولا صلة لها بتحديد هوية الانمة وعدددهم ، وما يدخل في مهام المرحلة الثانية . أما المرحلة الثانية فتنهض ببحث أبعاد الامامة الخاصة ومسؤولياتها ، وتدرس من هم الانمة ؟ وما هو عدددهم ؟ وما هي صيغ إثبات إمامتهم ؟ ما هي خصائص كل واحد منهم ؟ وهل يتفاضلون فيما بينهم ؟ لماذا اقتص بعضهم بخصوصيات لا توجد في غيره ؟ إلى غير ذلك من البحوث التفصيلية « [14]] .

المحور الأول

استمرار الإمامة وديمومتها

لا إشكال أن النبوة كظاهرة إلهية غيبية ، منقطعة وليست مستمرة ، وأنها خُتمت بمحمد (صلى الله عليه وآله) ، قال تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَ لَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) [15] ، فهل الامامة أيضاً ظاهرة منقطعة كالنبوة ، أم هي مستمرة إلى أن يرث الله الارض ومن عليها؟ الظاهر أن الآيات والروايات الواردة عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) تؤكد استمرار ظاهرة الامامة والخلافة وعدم انقطاعها .

دلائل استمرار الامامة

يمكن الاستدلال على إثبات هذه الحقيقة من خلال الآيات القرآنية أولاً ، ومن طريق الروايات ثانياً .

الطريق الاول : الآيات القرآنية

الآية الاولى : قوله تعالى : (وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [16] .

أشارت هذه الآية المباركة إلى :

أولاً : أن هذا الخليفة أرضي ، وهو موجود في كل زمان ، والدال على ذلك قوله : (جَاعِلٌ) لأن الجملة الاسمية ، وكون الخبر على صيغة « فاعل » التي هي بمنزلة الفعل المضارع ، تفيد الدوام والاستمرار ، مضافاً إلى أن الجعل في اللغة ، كما يقول الراغب في المفردات ، له استعمالات متعددة ومنها « تصيير الشيء على حالة دون حالة » [17] ، وهذا ما أكدته جملة من المفسرين ، كالرازي في « التفسير الكبير » [18] والألوسي في « روح المعاني » [19] ، وعندما يقارن هذا الجعل بما يناظره من الموارد في القرآن الكريم نجد أنه يفيد معنى السنة الإلهية كقوله تعالى : (جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا) و (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) ونحوهما .

ثانياً : إن هذا الخليفة ليس هو مطلق الانسان فيكون من قبيل قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) [20] .

وإنما المقصود به إنسان بخصوصه ، وذلك بقريئة الآيات اللاحقة التي أثبتت أن هذا الموجود الارضي إنما استحق الخلافة الإلهية لانه علم الاسماء كلها مباشرة منه تعالى : (وَ عَلَّمَ عَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ، ثم صار واسطة بينه تعالى وبين ملائكته (يَادُمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) ومن الواضح أنه لا يمكن أن يراد به كل إنسان ، حتى أولئك الذين عبر عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى : (أَوْلَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) [21] ، إذن فهذه الآية تدل على ضرورة استمرار الخلافة الإلهية ، أما من هو ذلك الخليفة في كل زمان فله بحث آخر ، سنعرض له لاحقاً .

الآية الثانية : قوله تعالى لابراهيم الخليل (عليه السلام) : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) [22] ، وهذه الامامة هي غير النبوة والرسالة التي كانت لابراهيم (عليه السلام) .

والشاهد على ذلك :

1 - « طلب الامامة للذرية حيث قال : (وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي) ، ومن الواضح أن حصول ابراهيم (عليه السلام) على الذرية كان في كبره وشيخوخته ، كما قال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ) [23] ، وحكى سبحانه عن زوجة ابراهيم : (قَالَتْ يَوَئِلَيْتَى آئِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) [24] .

ولا يصح هذا الطلب إلا لمن كان عنده ذرية ، أما من كان آيساً من الولد ويجيب مبشريه بقوله : (أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ تَبَشِّرُونَ) [25] ، فلا يصح منه والحالة هذه أن يطلب أي شيء لذريته » [26] .

ولو كان ذلك في أوائل حياته وقبل أن يرزق الذرية ، لكان من الواجب أن يقول : « ومن ذريتي إن رزقتني ذرية » ، وإلا لزم منه أن يخاطب الخليل (عليه السلام) ربه الجليل بما لا علم له به ، وهذا ما يتنزه عنه مقام ابراهيم الخليل (عليه السلام) .

2 - « إن قوله تعالى : (وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) [27] يدل على أن هذه الامامة الموهوبة إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات ، وليست هذه إلا أنواع البلاء التي ابتلي (عليه السلام) بها في حياته ، وقد نص القرآن على أن من أوضحها قضية ذبح اسماعيل (عليه السلام) ، قال تعالى : (قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) إلى أن قال : (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) [28] » [29] .

وهذا ما أكدته جملة من الروايات الصحيحة الواردة في المقام .

عن الامام الصادق (عليه السلام) في حديث مطول يقول فيه : « وقد كان ابراهيم عليه السلام نبياً وليس بإمام حتى قال الله (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) » [30] .

وهذه الامامة التي ثبتت لابراهيم (عليه السلام) طلبها لذريته من بعده ، حيث قال : (وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي) وقد استجاب الحق سبحانه دعاءه ، ولكن لم يجعلها في الظالمين من ذريته ، وإنما في غيرهم .

يقول الرازي في ذيل هذه الآية : « وقوله : (وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي) طلب للإمامة التي ذكرها الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد بهذا العهد هو الإمامة ، ليكون الجواب مطابقاً للسؤال ، فتصير الآية كأنه تعالى قال : (لا ينال الإمامة الظالمين ، وكل عاص فإنه ظالم لنفسه) فكانت الآية دالة على ما قلناه .

فإن قيل : ظاهر الآية يقتضي انتفاء كونهم ظالمين ظاهراً وباطناً ، ولا يصح ذلك في الإنمة والفضة .

قلنا : أما الشيعة ، فيستدلون بهذه الآية على صحة قولهم في وجوب العصمة ظاهراً وباطناً .

وأما نحن فنقول : مقتضى الآية ذلك .

إلا أننا تركنا اعتبار الباطن فتبقى العدالة الظاهرة معتبرة « [31] » .

لكن لم يبين لنا الرازي ، لماذا ترك ما دلت عليه الآية من وجوب العصمة ظاهراً وباطناً ، واكتفى بالعدالة الظاهرية ، مع اعترافه بدلالة الآية على ذلك ، وكيف كان (سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَ يُسْأَلُونَ) [32] .

ومن الواضح أن استجابة دعائه في ذريته ، لا يختص بالصلبيين فقط ، بل هو شامل لجميع ذريته شريطة أن لا يكون ظالماً .

وهذا ما أكده الامام الرضا (عليه السلام) بقوله : « إن الإمامة خص الله عز وجل بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة

والخلة مرتبة ثالثة ، وفضيلة شرفه بها وأشاد بها ذكره ، فقال : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) ، فقال الخليل عليه السلام سروراً

بها : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) قال الله تباركوتعالى : (لَأَيُّالَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت

في الصفوة ، ثم أكرمه الله تعالى بأن جعلها في ذريته أهل الصفوة والطهارة ، فقال : (وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّمَا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عِبِيدِينَ)

[33] ، فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض ، قرناً فقرناً ، حتى ورثها الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله فقال جل

وتعالى : (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلىُّ الْمُؤْمِنِينَ) [34] فكانت له خاصة ،

فقدما عليها عليه السلام بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله ، فصارت في ذريته الاصفياء الذين آتاهم الله العلم والايمان

بقوله تعالى : (وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ) [35] فهي في ولد

علي عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة « [36] » .

الآية الثالثة : (وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي

عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [37] .

« ذهب جمع من المفسرين إلى أن الكلمة الباقية في عقب إبراهيم (عليه السلام) هي كلمة التوحيد ، إذ براءته مما يعبد قومه

، واتجاهه نحو الذي فطره هو عين معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، وقوله : (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ، أي يرجع المشرك منهم

بدعوة الموحد إلى الله تعالى [38] .

إذن ، فقد جعل الله تعالى التوحيد باقياً في ذرية إبراهيم (عليه السلام) وعقبه ، ولا تخلو ذريته من الموحدين .

وقد بينا في كتاب « العصمة » أن جميع المعاصي نوع ، بل مرتبة من مراتب الشرك بالله تعالى ، والتوحيد الذي جعله الله

تعالى باقياً في عقب إبراهيم (عليه السلام) لا بد أن يكون التوحيد الحقيقي ، الذي لا يشوبه شيء من الشرك أبداً ، ليستحق

الاشادة به في القرآن الكريم ، وإلا فلا يمكن أن يريد به التوحيد الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله : (وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ

بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ) [39] .

هذا مضافاً إلى أن ظاهر الآية أن هذا التوحيد الباقي في عقبه هو التوحيد الابراهيمي الذي لم يخالطه أدنى شرك بالله العظيم .

لكن من كان يتحلّى بمثل هذا التوحيد الحقيقي علماً وعملاً ؟ ومن كان يحمل بين جوانحه ما يحمله شيخ الموحدين الذي (قال له رَبُّهُ أَسْلَمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [40] ؟

لا شك أن الذي يتحلّى بذلك هو الذي ناله عهد الله سبحانه من ذرية الخليل (عليه السلام) حينما قال : (وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) .

ومن هنا يتضح جلياً بقاء الامامة التي جعلها الله تبارك وتعالى لخليله إبراهيم (عليه السلام) ، ببقاء تلك الكلمة المباركة في عقبه وذريته « [41] » .

وعلى هذا الاساس جاءت جملة من الروايات التي بيّنت أن هذه الكلمة الباقية في عقبه (عليه السلام) هي الامامة .

عن أبي هريرة قال : سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن قوله عزّ وجلّ : (وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ) قال : « جعل الامامة في عقب الحسين يخرج من صلبه تسعة من الائمة ، ومنهم مهدي هذه الامة » [42] .

وأكتفي بهذا القدر من الآيات التي دلّت على استمرار الامامة والخلافة إلى يوم القيامة ، وهناك آيات أخرى تشير إلى هذه الحقيقة القرآنية ، نوجّل الحديث عنها إلى مواضعها المناسبة .

الطريق الثاني : الروايات

هناك طوائف متعدّدة من الروايات تشير إلى أن ظاهرة الامامة مستمرة غير منقطعة ، نقف عند بعضها :

الطائفة الاولى : روايات حديث الثقلين:

« هذا الحديث يكاد يكون متواتراً ، بل هو متواتر فعلاً ، إذا لوحظ مجموع روايته من الشيعة والسنة في مختلف الطبقات ، واختلاف بعض الرواة في زيادة النقل ونقصته ، تقتضيه طبيعة تعدّد الواقعة التي صدر فيها ، ونقل بعضهم له بالمعنى ، وموضع الالتقاء بين الرواة متواتر قطعاً .

وحسب الحديث لان يكون موضع اعتماد الباحثين ، أن يكون من روايته ، كل من صحيح مسلم ، وسنن الدارمي ، وخصائص النسائي ، وسنن أبي داود ، وابن ماجة ، ومسنند أحمد ، ومستدرک الحاكم ، وذخائر الطبري ، وحلية الاولياء ، وكنز العمال ، وغيرهم ، وأن تعنى بروايته كتب المفسرين أمثال الرازي ، والثعلبي ، والنيسابوري ، والخازن ، وابن كثير ، وغيرهم . بالاضافة إلى الكثير من كتب التاريخ ، واللغة ، والسير ، والتراجم .

وما أظن أن حديثاً يملك من الشهرة ما يملكه هذا الحديث ، وقد أوصله ابن حجر في الصواعق المحرقة إلى نيف وعشرين صحابياً .

يقول في كتابه : (ثم اعلم أنّ لحديث التمسك بذلك طرفاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً) [43] ، وفي غاية المرام وصلت أحاديثه من طرق السنة إلى (39 حديثاً) ، ومن طرق الشيعة إلى (82 حديثاً) « [44] » .

بل في « نفحات الازهار في خلاصة عبقات الانوار » للامام السيد حامد حسيني الكهنوي ، ذكر أن هذا الحديث : « رواه عن النبي (صلى الله عليه وآله) أكثر من ثلاثين صحابياً ، وما لا يقل عن ثلاثمائة عالم من كبار علماء أهل السنة ، في مختلف العلوم والفنون ، في جميع الاعصار والقرون ، بألفاظ مختلفة وأسانيد متعدّدة ، وفيهم أرباب الصحاح والمسانيد وأئمة الحديث والتفسير والتاريخ ، فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين » [45] .

ولسان الحديث ، كما في رواية زيد بن أرقم : « إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الارض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » [46] .

ومقتضى عدم افتراق العترة عن القرآن الكريم ، هو بقاء العترة إلى جنب القرآن إلى يوم القيامة، وعدم خلق زمان من الازمنة منهما ، لأنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض.

يقول ابن حجر : « وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم ، للتمسك به إلى يوم القيامة ، كما أن الكتاب العزيز كذلك ، ولهذا كانوا أماناً لأهل الارض » [47] .

الطائفة الثانية : روايات «لا تخلو الارض من قائم لله بحجة»

ورد مضمون هذا الحديث بعبارات مختلفة في كلمات الاعلام من الفريقين منهم الاسكافي المعتزلي في « المعيار والموازنة » ، وابن قتيبة في « عيون الاخبار » ، واليعقوبي في تاريخه ، وابن عبدربه في « العقد الفريد » ، وأبو طالب المكي في « قوت القلوب » ، والبيهقي في « المحاسن والمساوي » ، والخطيب البغدادي في تاريخه وغيرهم [48] .

يقول ابن أبي الحديد : « كي لا يخلو الزمان ممن هو مهيمن لله تعالى على عباده ، ومسيطر عليهم ، وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الامامية ، إلا أن أصحابنا يحملونه على أن المراد به الابدال » [49] .

وقال ابن حجر : « وفي صلاة عيسى عليه السلام خلف رجل من هذه الامة ، مع كونه في آخر الزمان ، وقرب قيام الساعة ، دلالة للصحيح من الاقوال ، أن الارض لا تخلو من قائم لله بحجة » [50] .

أما في المجاميع الحديثية الشيعية ، فقد وردت المنات من الروايات التي تؤكد هذه الحقيقة ، وهي أن الارض لا تخلو من حجة لله تعالى ، وأنها لو خلت لساخت بأهلها .

ويمكن مراجعة جملة منها في بحار الانوار ، بحيث بلغت زهاء (120 رواية) بهذا المضمون أو ما يقرب منه .
ومن أمثلة ذلك :

1 - عن الامام الصادق (عليه السلام) : « ولولا ما في الارض منّا لساخت بأهلها ، ثم قال : ولم تخل الارض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله فيها » .

[51]

2 - قال الصادق (عليه السلام) : « لو لم يبق في الارض إلا رجلان لكان أحدهما الحجة » [52] .

الطائفة الثالثة : روايات « من مات ولم يعرف إمام زمانه » :

أو ما يقرب من مضمونه ، مثل : « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » أو « من مات وليس عليه إمام ، فإن موته موتة جاهلية » أو « من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية » .

وتناقلت كتب الحديث السنوية فضلاً عن الموسوعات الحديثية الشيعية ، هذا الحديث بألفاظ مختلفة ، فقد نقله البخاري ، ومسلم ، وابن حنبل ، وابن حبان ، والطبراني ، والحاكم النيسابوري ، وأبو نعيم الاصفهاني ، وابن الاثير الجزري ، والطيالسي ، والدولابي ، والبيهقي ، والسرخسي ، وابن أبي الحديد ، والنووي ، والذهبي ، وابن كثير ، والتفتازاني ، والهيثمي ، والمتقي الهندي ، وابن الربيع الشيباني ، والقندوزي الحنفي ، والاسكافي المعتزلي ، وغيرهم [53] .

ولابد من الإشارة هنا إلى نقطة ، وهي : قد يستشكل بعض على جملة من هذه الروايات التي ترد في مثل هذه البحوث بأنها ضعيفة السند ، إلا أن هذا الاشكال غير تام بحسب الموازين العلمية الثابتة في محلها ، لأن هذه الروايات ليست هي آحاد ، حتى يمكن الاشكال السندي فيها ، وإنما هي من الكثرة بمكان ، بنحو إما أن تكون متواترة ، أو قريبة من ذلك ، ومن الواضح أنه في مثل هذه الحالة لا مجال للبحث السندي فيها ، طبعاً مع مراعاة الخصوصيات والعوامل الموضوعية والذاتية التي أشار إليها أستاذنا الشهيد الصدر (قدس سره) في نظرية حساب الاحتمالات ، فإنه مع الاخذ بعين الاعتبار تلك العوامل ، فلا ريب في

حصول الاطمئنان للباحث المنصف ، في صدور كثير من هذه الاحاديث عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) .



الهوامش

- [1] الشورى : 38 .
- [2] بحث حول الامامة ، نص الحوار مع السيد كمال الحيدري ، حاوره جواد علي كسار ، المقدمة، ص 15 .
- [3] البقرة : 30 .
- [4] البقرة : 124 .
- [5] الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 199 ، كتاب الحجّة ، باب نادر وجامع في فضل الامام وصفاته .
- [6] بحار الانوار ، ج 23 ، ص 6 ، ح 10 .
- [7] الانفال : 33 .
- [8] بحار الانوار ، ج 23 ، ص 19 ، ح 14 .
- [9] بحار الانوار ، ج 23 ، ص 6 ، ح 10 .
- [10] ابراهيم : 24 - 25 .
- [11] العصمة ، محاضرات السيد كمال الحيدري ، بقلم محمد القاضي ، الطبعة الخامسة، ص 18 .
- [12] البقرة : 124 .
- [13] السجدة : 24 .
- [14] بحث حول الامامة ، المقدمة، ص 11 .
- [15] الاحزاب : 40 .
- [16] البقرة : 30 .
- [17] المفردات في غريب القرآن ، ص 94 ، مادة « جعل » .
- [18] التفسير الكبير ، ج 2 ، ص 165 .
- [19] روح المعاني ، ج 1 ، ص 220 .
- [20] فاطر : 39 .
- [21] الاعراف : 179 .
- [22] البقرة : 124 .
- [23] ابراهيم : 39 .
- [24] هود : 72 .
- [25] الحجر : 54 .
- [26] العصمة ، مصدر سابق ، ص 32 .
- [27] البقرة : 124 .

- [28] ([28]) الصفات : 106 .
- [29] ([29]) الميزان في تفسير القرآن ، ج 1 ، ص 268 .
- [30] ([30]) الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 174 .
- [31] ([31]) التفسير الكبير ، ج 4 ، ص 42 .
- [32] ([32]) الزخرف : 19 .
- [33] ([33]) الانبياء : 73 .
- [34] ([34]) البقرة: 68.
- [35] ([35]) الروم : 56 .
- [36] ([36]) الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 199 ، باب في فضل الامام وصفاته .
- [37] ([37]) الزخرف : 26 - 28 .
- [38] ([38]) البيان ، ج 9 ، ص 193 ؛ الكشّاف ، ج 4 ، ص 246 ؛ التفسير الكبير ، ج 27 ، ص 208 ؛ الميزان ، ج 18 ، ص 96 .
- [39] ([39]) يوسف : 106 .
- [40] ([40]) البقرة : 131 .
- [41] ([41]) العصمة ، ص 35 .
- [42] ([42]) كفاية الاثر ، ص 86 .
- [43] ([43]) الصواعق المحرقة ، ص 148 .
- [44] ([44]) الاصول العامة للفقهاء المقارن ، دار الاندلس ، ص 164 .
- [45] ([45]) نفحات الازهار في خلاصة عبقات الانوار في إمامة الائمة الاطهار ، لحجة التاريخ والبحث والتحقيق الامام السيد حامد حسين الكهنوي ، بقلم علي الحسيني الميلاني ، ج 1 ، ص 185 .
- [46] ([46]) سنن الترمذي ، ج 5 ، ص 664 ، ح 3786 .
- [47] ([47]) الصواعق المحرقة ، ص 149 .
- [48] ([48]) المعيار والموازنة ، ص 81 ؛ عيون الاخبار ، ص 7 ؛ تاريخ يعقوبي ، ج 2 ، ص 400 ؛ العقد الفريد ، ج 1 ، ص 265 ؛ قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج 1 ، ص 227 ؛ المحاسن والمساوي ص 400 ؛ تاريخ بغداد ، ج 6 ، ص 479 ؛ المناقب للخوارزمي ، ص 13 ؛ مفاتيح الغيب للرازي ، ج 2 ، ص 192 ؛ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ج 6 ، ص 270 ، ح 3 ، وج 1 ، ص 274 ، ح 3 .
- [49] ([49]) شرح نهج البلاغة ، ج 18 ، ص 351 .
- [50] ([50]) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ج 6 ، ص 385 .
- [51] ([51]) بحار الانوار ، ج 23 ، باب الاضطرار إلى الحجّة ، ح 10 .
- [52] ([52]) بحار الانوار ، ج 23 ، باب الاضطرار إلى الحجّة ، ح 24 .
- [53] ([53]) صحيح البخاري : باب الفتن ، ج 5 ، ص 13 ؛ صحيح مسلم ، ج 6 ، ص 21 ، ح 1849 ؛ مسند أحمد ، ج 2 ، ص 83 ؛ الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، ج 7 ، ص 49 ، ح 4554 ؛ المعجم الكبير للطبراني ، ج 10 ، ص 355 ، ح 10687 ؛ المستدرک ، ج 1 ، ص 77 ؛ حلية الاولياء ، ج 3 ، ص 224 ؛ جامع الاصول ، ج 4 ، ص 7 ؛ مسند الطيالسي ،

ص 259 ; الكنى والاسماء ، ج 2 ، ص 3 ; سنن البيهقي ، ج 8 ، ص 156 - 157 ; المبسوط ، ج 1 ، ص 113 ; شرح
نهج البلاغة ، ج 9 ، ص 100 ; شرح صحيح مسلم للنووي ، ج 12 ، ص 44 ; تلخيص المستدرک للذهبي ، ج 1 ، ص
77 ; تفسير ابن كثير ، ج 1 ، ص 517 ; شرح المقاصد ، ج 2 ، ص 275 ; مجمع الزوائد ، ج 5 ، ص 218 - 219 ;
كنز العمال ، ج 3 ، ص 200 ; تيسير الوصول ، ج 2 ، ص 350 ; ينابيع المودة ، ص 117 ; خلاصة نقض كتاب العثمانيّة
للجاحظ ، ص 29 .

المحور الثاني

عدد الائمة

بعد أن ثبت في البحث السابق أنّ الامامة ظاهرة مستمرة غير منقطعة ، نحاول في هذا البحث الوقوف على أنّ الائمة هل ينحصر عددهم في حدّ معين أم لا ؟

تبنتى أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) حصر عدد الائمة باثني عشر إماماً ، تبعاً لما بين أيديهم من الروايات الصحيحة الدالة على ذلك .

حينئذ قد يثار إشكال على هذا الحصر ، مؤداه أنّ هؤلاء إنّما اضطروا إلى ذلك لاسباب تاريخية أو سياسية ونحوها ، وإلا فإن مقتضى ما تقدّم من البحث في المحور الأوّل ، هو استمرار الامامة وعدم الوقوف بها عند حدّ معين .

غير أنّ إثارة مثل هذا الاشكال أمر غريب ، خصوصاً ممّن يدّعي أنّه يريد الوقوف على هذه الابحاث من خلال الموازين العلمية بالبحث والتحقيق .

وذلك لأننا عندما نرجع إلى صريح القرآن الكريم ، نراه يعبر عن الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بأنّه : (وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ([54]) ، ويقول في حقّه : (وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) ([55]) .

ثمّ رتب القرآن على ذلك وجوب الاخذ منه (صلى الله عليه وآله) حيث قال : (وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ([56]) .

وتأسيساً على ذلك كلّه بيّن دور الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) حيث قال : (وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) ([57]) ، وهكذا قام الرسول (صلى الله عليه وآله) ببيان ما أمر بإبلاغه للناس ، لذا يقول الامام الرضا (عليه السلام) : « إنّ الله عزّ وجلّ لم يقبض نبيّه صلى الله عليه وآله حتّى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كلّ شيء ، بيّن فيه الحلال والحرام ، والحدود والاحكام ، وجميع ما يحتاج إليه الناس كمالاً ، فقال عزّ وجلّ : (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) ، وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمره صلى الله عليه وآله : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) ([58]) ، وأمر الامامة من تمام الدين ، ولم يمض صلى الله عليه وآله حتّى بيّن لامته معالم دينهم وأوضح لهم سبيله وتركهم على قصد سبيل الحق ، وأقام لهم عليّاً عليه السلام علماً وإماماً .

وما ترك لهم شيئاً تحتاج إليه الامّة إلا بيّنه ، فمن زعم أنّ الله عزّ وجلّ لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله ، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر » ([59]) .

ومن الواضح أنّ أهم ما ينبغي بيانه في أمر الامامة التي بها كمال الدين وتتمام النعمة ، بل هي التي عبر عنها القرآن الكريم : بقوله : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) ([60]) ، بعد أن بيّن (صلى الله عليه وآله) دوامها وعدم انقطاعها ، هو بيان عددهم وتعيين أشخاصهم .

وهذا ما نحاول الوقوف عليه في الابحاث اللاحقة .

ذكر المحقق آية الله الصافي في كتابه القيم (منتخب الاثر) أنّ الروايات التي ذكرت أنّ الخلفاء من بعد النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) هم اثنا عشر ، قد تصل إلى ما يتجاوز (270 رواية) من طرق الفريقين ([61]) .

ولعلّ العدد أكثر من ذلك بكثير ، كما ورد في « معجم أحاديث الامام المهدي » أن : « مصادر حديث أنّ الانمّة بعد النبي (صلى الله عليه وآله) اثنا عشر ، وأنهم من قريش أو من أهل البيت (عليهم السلام) كثيرة ، وقد أفرد لها بعضهم كتيباً خاصاً ، وقد جمعناها فرأيناها تبلغ مجلداً كاملاً ، لذلك اخترنا منها هذه النماذج فقط ، وقد نوفّق لاكمال تحقيقها من مصادر الفريقين ونشرها مستقلة » [[62]] .

وكنموذج على ذلك فقد خرج مضمون هذا الحديث كلّ من ، صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، ومسنند أحمد ، وسنن الترمذي ، وسنن أبي داود ، والمعجم الكبير للطبراني ، وحلية الاولياء ، ومستدرک الحاكم ، وصحيح مسلم بشرح النووي ، ومشكاة المصابيح ، والسلسلة الصحيحة للالباني ، وعون المعبود في شرح سنن أبي داود ، والصواعق المحرقة ، وتاريخ الخلفاء ، وكنز العمال ، وغيرهم كثير [[63]] .

ومن هذه الروايات : أخرج البخاري بسنده عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقول : « يكون اثنا عشر أميراً - فقال كلمة لم أسمعها - فقال أبي : إنه قال : كلهم من قريش » [[64]] .

وفي صحيح مسلم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « لا يزال الدين قائماً حتّى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش » [[65]] .

ويقول أحمد بن حنبل في مسنده عن مسروق ، قال : كنّا جلوس عند عبدالله بن مسعود وهو يقرأ القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ! هل سألتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) كم يملك هذه الامّة من خليفة ؟ فقال عبدالله : ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ، ولقد سألتنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فقال : « اثني عشر كعدّة نعباء بني إسرائيل » [[66]] .

هذا بالإضافة إلى عشرات المصادر الشيعيّة .

خصائص هذه الروايات:

تمتاز هذه الروايات التي ذُكرت بهذه الكيفيّة ، وهذا العدد من الاسانيد والطرق من الصدر الاوّل إلى يومنا هذا ، بمجموعة من الخصوصيّات هي :

الخصوصيّة الاولى : أنّ هذه الروايات لا يمكن لاحد أن يتهم أتباع أهل البيت (عليهم السلام) بوضعها واختلافها ، بعد أن آمنوا بأنّ عدد الانمّة اثنا عشر ، وذلك لورودها في أهم الصحاح والمسانيد السنّيّة قبل ذكرها في المصادر الشيعيّة ، وأنّ جملة من طرقها تعد موثوقة لديهم حسب الموازين الرجاليّة عندهم ، مضافاً إلى أنّ هذا العدد ذُكر قبل أن يكتمل عدد الانمّة عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة جملة من المحقّقين ، منهم سيّدنا الشهيد الصدر (قدس سره) حيث يقول : « قد أحصى بعض المؤلّفين روايات هذا الحديث النبوي الشريف عن الانمّة أو الخلفاء أو الامراء بعده ، أنّهم اثنا عشر ، فبلغت الروايات أكثر من (270 رواية) ، مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنة ، بما في ذلك البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، ومسنند أحمد ، ومستدرک الحاكم على الصحيحين .

وليست الكثرة العدديّة لهذه الروايات هي الاساس الوحيد لقبولها ، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحّتها ، فالبخاري الذي نقل هذا الحديث ، كان معاصراً للامام الجواد (عليه السلام) ، والامامين الهادي والعسكري (عليهما السلام) ، وفي ذلك مغزى كبير ، لانه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سُجّل عن النبي (صلى الله عليه وآله) قبل أن يتحقّق مضمونه ،

وتكتمل فكرة الانمة الاثني عشر فعلاً ، وهذا يعني أنه لا يوجد أي مجال للشك في أن يكون نقل الحديث متأثراً بالواقع الامامي الاثني عشري وانعكاساً له ، لأن الاحاديث المزيفة التي تنسب إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ، هي انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنياً ، لا تسبق في ظهورها وتسجيلها في كتب الحديث ، ذلك الواقع الذي يشكّل انعكاساً له .

فمادنا قد ملكنا الدليل المادي على أن الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخي للانمة الاثني عشر ، وضبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الامامي الاثني عشري ، أمكننا أن نتأكد من أن هذا الحديث ليس انعكاساً لواقع ، وإنما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن الهوى ، فقال : إن الخلفاء بعدي اثنا عشر ، وجاء الواقع الامامي الاثني عشري ابتداءً من الامام علي (عليه السلام) وانتهاءً بالمهدي ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف «[67]» .

الخصوصية الثانية : أن عدداً كبيراً من هذه الروايات من طرق الفريقين شبهت هؤلاء الانمة والخلفاء ، بأنهم كقباة بني إسرائيل ، كما في رواية أحمد ، والحاكم النيسابوري ، وغيرهما .

أخرج أحمد عن مسروق قال : كنا جلوس عند عبدالله بن مسعود ، يقرنا القرآن ، فسأله رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، هل سألتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) كم يملك هذه الامة من خليفة ، فقال عبدالله : ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ، ولقد سألتنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال : « اثني عشر كعدة قباة بني إسرائيل » [68] .

وفي رواية أخرى لابن مسعود ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « يكون بعدي من الخلفاء عدة أصحاب موسى » [69] .

وقد ورد في التراث الشيعي عشرات الروايات التي تؤكد الحقيقة السابقة ، وشبهتهم بأنهم عدة قباة بني إسرائيل أيضاً ، يمكن الرجوع إليها في معجم احاديث الامام المهدي [70] .

ومقتضى هذا التشبيه كما يقول أستاذنا السيد محمد تقي الحكيم ، أن يكون هؤلاء الامراء معيّنون بالنص ، وذلك لقوله تعالى : (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا) [71] ، وعلى هذا الاساس فلا يمكن الوقوف على هؤلاء الخلفاء والانمة من خلال اختيار الامة ، أو انتخاب أهل الحل والعقد لهم ، بل لابد من الرجوع إلى من لا ينطق عن الهوى ، للتعرف عليهم والوقوف على أشخاصهم .

الخصوصية الثالثة : أن هذه الروايات افترضت لهم البقاء ما بقي الدين الاسلامي ، أو حتى تقوم الساعة ، كما هو مقتضى هذه الرواية التي جاءت في مسند أحمد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الدين قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة من قريش » [72] .

وأصرح من ذلك روايته الاخرى ، عن عبدالله بن عمر ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « لا يزال الامر في قريش ما بقي من الناس اثنان ، قال : وحرك إصبعيه يلويهما هكذا » [73] .

الخصوصية الرابعة : أن هذه الروايات جميعاً أكدت أن هؤلاء الخلفاء من قريش ، بالاضافة إلى أن هناك عدداً كبيراً من الروايات ذكرت خصائص أخرى لهؤلاء الخلفاء والانمة ، إلا أنها لم تأت في مصادر التراث السنّي ، ولعلنا نوفق للإشارة إليها بعد ذلك .

لكن يبقى هناك تساؤل ملفت للنظر ، هو أنه بحسب الروايات التي وردت في الصحاح والمسانيد السنّية ، أن الامة سكتت ولم تستوضح من النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) من هم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر ؟ خصوصاً وأن النبي الاعظم ، في مواضع متفرقة وأماكن مختلفة كان يؤكد هذه الحقيقة ، بالنحو الذي لم تدع مجالاً للمحقق المنصف ، أن يشكك في مضمون هذه الروايات ، وإن حاول ابن تيمية التشكيك في ذلك كما هي عادته في مثل هذه المواضع ، حيث قال بعد قول العلامة الحلّي في «

منهاج الكرامة» (ولم يجعلوا الانمة محصورين في عدد معين) : « فهذا حق ، وذلك أن الله تعالى قال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) ولم يوقتهم بعدد معين » وكذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) في الاحاديث الثابتة عنه المستفيضة ، لم يوقت ولاية الامر في عدد معين «[74]»، وتبعه بعض الكتاب المعاصرين .

إلا أن المحققين من أعلام القوم لما لم يجدوا طريقاً لردّ هذه الاحاديث الكثيرة اضطربوا في بيان المراد منها .

فبعضهم أظهر العجز عن فهم معناها ، قال ابن العربي المالكي : « ولم أعلم للحديث معنى » [75] .

وقال ابن الجوزي : « قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث، وتطلّبت مظانّه ، وسألته عنه ، فلم أقع على المقصود » [76] .

وذهب آخرون إلى توجيهها بما يتلاءم مع الواقع التاريخي الذي وجد بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) منهم ابن تيمية في منهاج السنة ، حيث قال : « وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يزال هذا الامر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش ، ولفظ البخاري اثني عشر أميراً ، وفي لفظ : لا يزال أمر الناس ماضياً ولهم اثنا عشر رجلاً ، وفي لفظ : لا يزال الاسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش . وهكذا كان .

فكان الخلفاء : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي، ثم تولى من اجتمع الناس عليه وصار له عزّ ومنعة ، معاوية ، وابنه يزيد ، ثم عبد الملك ، وأولاده الاربعة ، وبينهم عمر بن عبد العزيز ، وبعد ذلك حصل في دولة الاسلام ما هو باق إلى الآن .

فإن بني أمية تولّوا على جميع أرض الاسلام ، وكانت الدولة في زمنهم عزيزة .

وأعظم ما نغمه الناس على بني أمية شينان : أحدهما : تكلمهم في علي .

والثاني : تأخير الصلاة عن وقتها .

وهؤلاء الاثنا عشر خليفة هم المذكورون في التوراة حيث قال في بشارته لاسماعيل : وسيلد اثني عشر عظيماً «[77]».

ولست بصد مناقشة هذا الكلام ، لان هذه الدراسة ليست موضوعة لهذا الغرض ، وإنما هدفي من نقل هذه العبارة هو بيان رأي هذا الرجل في يزيد وأولاد عبد الملك بن مروان ، حيث يعتقد أن أمثال هؤلاء هم الذين بشر الله إسماعيل (عليه السلام) ، في التوراة ، بأنهم العظماء الذين سيولدون له !!

أما أمثال الحسن والحسين (عليهما السلام) اللذين هما سيدي شباب أهل الجنة ، وريحانتي رسول الله - بنص الفريقين من علماء المسلمين - فليسوا من أولئك العظماء الذين بُشِّرَ بهم إسماعيل (عليه السلام) بل حتى أن الامام علي (عليه السلام) ليس من المقطوع به أنه من الخلفاء الاثني عشر ، كما يعتقد ابن تيمية .

يقول : « وأما مروان وابن الزبير فلم يكن لواحد منهما ولاية عامة ، بل كان زمنه زمن فتنة ، فلم يحصل فيها من عز الاسلام وجهاد أعدائه ، ما يتناوله الحديث ، ولهذا جعل طائفة من الناس خلافة علي من هذا الباب ، وقالوا : لم تثبت بنص ولا إجماع . »

ويقول في موضع آخر : « ومن ظنّ أن هؤلاء الاثني عشر هم الذين تعتقد الرافضة بإمامتهم ، فهو في غاية الجهل ، فإن هؤلاء ليس فيهم من كان له سيف إلا علي بن أبي طالب ، ومع هذا فلم يتمكّن في خلافته من غزو الكفار ولا فتح مدينة ، ولا قتل كافراً ، بل كان المسلمون قد اشتغل بعضهم بقتال بعض ... فأى عز للاسلام في هذا ، والسيف يعمل في المسلمين ، وعدوهم قد طمع فيهم ونال منهم » [78].

إذن يعتقد ابن تيمية أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ليسوا مصداقاً للعظماء الذين بُشِّرَ بهم إسماعيل (عليه السلام) وإنما في رأيه ، أن معاوية الذي سنّ سبّ الامام علي (عليه السلام) على منابر المسلمين لعشرات الاعوام ، هو المستحق لان يكون أحد مصاديق الخلفاء الاثني عشر .

يحدثنا المدائني في كتاب الاحداث ، أن معاوية كتب إلى عماله نسخة واحدة ، أن برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته .

وقام الخطباء بعد ذلك بالنيل من علي وأهل بيته ، حتى أدت هذه الحالة في الشام كما يقول ابن عساكر : « أن تختتم مجالس الوعظ بشتم علي عليه السلام » [79].

وكذلك يرى أن يزيد الذي قتل الحسين (عليه السلام) وأباح المدينة وهدم الكعبة ، هو الذي يليق به أن يكون من العظماء الذين ذكروا في التوراة .

يقول بعض المؤرخين المعاصرين : « فكانت باكورة عمله أن قتل الحسين ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسبى نساءه بصورة يذوب لها قلب كل إنسان ، مهما اختلفت ملته ونحلته ، فضلاً عن المسلم الذي يعرف الحسين ومنزلته من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومكانته من الاسلام .

وفي السنة الثانية أباح مدينة رسول الله ، وأصبح جنده يجوسون خلال ديار الوحي ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل ، يتدفقون في شوارع ذلك البلد الطيب ، يهجمون على البيوت ، ليهتكوا أعراضاً ، ويسلبوا أموالاً ، وترى مخدرات ذلك البلد كأسراب القطا تتخطفها البزاة الجارحة ، أو كقطعان الغنم تتناهبها الذئاب الضارية فهن تحت تصرف أولئك الوحوش ثلاثة أيام يفعلون ما شاءوا .

في السنة الثالثة هدم الكعبة .

ولعلها أبلغ أمنية لنفس الامويين ، ليجعلوا يوماً بيوم الهبل واللات والعزى .

هذا هو ولي عهد معاوية الذي عرف لياقته للحكم وصلاحيته للامر » [80].

ثم بعد هذا وذاك يرى ابن تيمية أن أولاد عبد الملك بن مروان هم الذين كان الاسلام في زمنهم عزيزاً ، ويشكر الله أن الخلافة وقعت بيد بني العباس ولم تقع بيد رافضي ، يقول : « ثم كان من نعم الله سبحانه ورحمته بالاسلام .

أن الدولة لما انتقلت إلى بني هاشم صارت في بني العباس، وإلا فلو تولى - والعياذ بالله - رافضي يسب الخلفاء والسابقين الاولين لقب الاسلام » [81].

هذه هي عقيدة ابن تيمية في المراد من الخلفاء الذين عبر عنهم الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بقوله : « لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة » .

ولقد أجاد القندوزي الحنفي عندما أجاب عن مثل هذه الاقوال بقوله : « قال بعض المحققين : إن الاحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وسلم اثني عشر ، قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان ، علم أن مراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حديثه هذا ، الانمة اثنا عشر من أهل بيته وعترته ، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ، لقلنتهم عن اثني عشر ، ولا يمكن أن نحمله على الملوك الاموية لزيادتهم على اثني عشر ، ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز ، ولكونهم غير بني هاشم لان النبي - صلى الله عليه وآله - قال : كلهم من بني هاشم ، في رواية عبد الملك بن جابر ، وإخفاء صوته (صلى الله عليه وآله) يرجح هذا القول ؛ لانهم لا يحسنون خلافة بني هاشم » [82].

من هنا نجد أن السيوطي ، بعد أن أورد ما قاله العلماء في هذه الاحاديث المشكلة ، خرج برأي غريب ، حيث قال : « وعلى هذا فقد وجد من الاثني عشر ، الخلفاء الاربعة ، والحسن ، ومعاوية وابن الزبير ، و عمر بن عبد العزيز ، وهؤلاء ثمانية ،

ويحتمل أن يضم إليهم المهدي من العباسيين ، لانه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أمية ، وكذلك الظاهر لما أوتيه من العدل ، وبقي الاثنان المنتظران ، أحدهما : المهدي لانه من أهل بيت محمد « [83] » .
ولم يبين المنتظر الثاني .

ورحم الله من قال في السيوطي : « إنه حاطب ليل » وما يقال عن السيوطي يقال عن ابن روزبهان في رده على العلامة الحلي وهو يحاول توجيه هذه الاحاديث « [84] » .

ولنرجع إلى التساؤل الذي أثارناه ، وهو أنه لماذا لم يسأل الاصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) من هم هؤلاء الخلفاء والائمة ، وهنا توجد عدة احتمالات :

الاول : أن الامة لم تهتم بذلك ، رغم الاهتمام الخاص الذي أولاه الرسول الكريم لبيان هذه الحقيقة ، من خلال العشرات بل المنات من الروايات التي بيّنت أن الرسول (صلى الله عليه وآله) أشار إلى أن الخلفاء من بعده اثنا عشر ، وهذا الاحتمال لا يمكن قبوله ، لانه طعن واضح في سيرة أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) ، حيث تؤكد لنا الوقائع التاريخية ، أنهم كانوا يهتمون بكل صغيرة وكبيرة من أمر هذا الدين بل كانوا يسألون عن أمور لا تهمهم لذا نزل قوله تعالى: (لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ) [85] .

الثاني : أنهم سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، ولكن الرسول لم يهتم ببيان ذلك لهم ، وهذا أيضاً لا يمكن قبوله ، لانه خلاف ما صرح به القرآن بالنسبة إلى رسوله الامين ، حيث قال : (وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) [86] ، بل هو مأمور ببيان ما نزل إليه من الامر الالهي (لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [87] خصوصاً ، أن ذلك الامر يرتبط بكمال الدين ، بل بأساسه ، لقوله تعالى : (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) [88] .

الثالث : أن الاصحاب سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وبيّنه لهم ، من خلال بيانات متعدّدة وفي مواقع مختلفة ، وبأساليب متنوعة لكن الاجهزة الحاكمة حالت دون ذلك ومنعت عن تدوين حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، بل أمرت بإحراق كل ما كتب في هذا المجال ، ونهت عن تدوين ما هو في صدور الاصحاب ، وليس غريباً أن تقف السلطات التي أرادت أن تتسلط على رقاب الامة باسم خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتمنع من هو منها كالقطب من الرحي ، دون نشر مثل هذه الاحاديث التي بيّنت أحقية الامام علي وأولاده بالخلافة والامامة من بعده ، ومن هنا نستطيع الوقوف على جواب تساؤل طالما أشار إليه جملة من أعلام السنة المتقدمين ، وردّته بعض الاقلام المعاصرة ، وهو أنه لو كانت الخلافة والامامة لعلي وأولاده من الامور التي أكدها وركز عليها النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) فلماذا أصيبت بمثل هذه الضبابية والابهام ، وصارت منشأ للنقض والابرام .

والجواب: هو أن السلطات الحاكمة وأجهزتها الاعلامية ، كانت تعمل بكل ما وسعها من أجل طمس الحقائق التي لا ترتضيها ، ولا تصب في مصالحها ، كما نجد ذلك واضحاً بالنسبة إلى الامام علي (عليه السلام) ، وهو أقرب الصحابة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) علماً وعملاً ، حيث سُنَّ لعنه وشتمه على منابر المسلمين ولعشرات السنين ، ولم يمر على رحلة الرسول الاعظم ، إلا ثلاثين عاماً ، فإذا كان بمقدور هذه الاجهزة كتمان الحقيقة وتشويهها ، وإيصال الامة إلى هذا المستوى من الجهل بأقرب الصحابة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإن بإمكانها أيضاً أن تخفي الحقيقة المتعلقة بالائمة الاحد عشر ، بحيث تصبح تلك الحقائق المسلمة قرآنيّاً غير واضحة في أذهان المسلمين بصورة عامة ، فيقع الاختلاف بينهم لا محالة .

ولكن (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ) ([89]) و (يُرِيدُونَ لِيُطْفَؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) ([90]) .



الهوامش

[54] النجم : 3 - 4 .

[55] الحاقّة : 44 - 46 .

[56] الحشر : 7 .

[57] النحل : 44 .

[58] المائدة : 3 .

[59] الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 199 ، باب نادر جامع في فضل الامام وصفاته .

[60] المائدة : 67 .

[61] منتخب الاثر في الامام الثاني عشر ، الطبعة الثالثة ، ص 10 .

[62] معجم أحاديث الامام المهدي (عجل الله فرجه) ، ج 2 ، ص 265 ، تأليف ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية .

[63] صحيح البخاري : كتاب الاحكام ، باب الاستخلاف ، ج 4 ، ص 164 ؛ صحيح مسلم ، ج 2 ، ص 119 ، كتاب

الامارة ، أخرجه بتسعة طرق ؛ مسند أحمد ، ج 5 ، ص 90 و 93 و 97 و 106 و 107 ؛ سنن الترمذي ، ج 4 ، ص 501 ؛

سنن أبي داود ، ج 4 ، ص 106 ، ح 7279 و 4281 ؛ المعجم الكبير للطبراني ، ج 2 ، ص 238 ، ح 1996 ؛ حلية

الاولياء ، ج 4 ، ص 332 ؛ مستدرک الحاكم ، ج 3 ، ص 618 ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، ج 12 ، ص 201 ؛ مشكاة

المصابيح للتبريزي ، ج 3 ، ص 327 ، ح 5983 ؛ السلسلة الصحيحة للالباني : ح 376 ؛ عون المعبود في شرح سنن أبي

داود ، ج 11 ، ص 262 ، شرح الحديث 4259 ؛ الصواعق المحرقة ، ص 12 ؛ تاريخ الخلفاء ، ص 10 ؛ كنز العمال ، ج

13 ، ص 27 .

[64] صحيح البخاري ، ج 4 ، ص 164 ، كتاب الاحكام ، باب الاستخلاف .

[65] صحيح مسلم ، ج 2 ، ص 119 ، باب الناس تبع لقريش ، أخرجه من تسعة طرق .

[66] مسند أحمد ، ج 5 ، ص 90 .

[67] بحث حول المهدي : آية الله السيد الشهيد محمد باقر الصدر ، ص 54 ، معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية في منظمة

الاعلام الاسلامي .

[68] مسند أحمد ، ج 5 ، ص 90 ؛ الصواعق المحرقة ، ص 12 ؛ تاريخ الخلفاء ، ص 10 .

[69] كنز العمال ، ج 13 ، ص 27 .

[70] معجم أحاديث الامام المهدي ، ج 2 ، ص 262 .

[71] المائدة : 12 .

[72] مسند أحمد ، ج 5 ، ص 86 ؛ صحيح مسلم ، ج 6 ، ص 4 .

[73] مسند أحمد ، ج 2 ، ص 29 .

[74] منهاج السنة ، ابن تيمية ، ج 3 ، ص 381 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة لمعرفة ابن تيمية ، مدخل لشرح منهاج الكرامة ، تأليف السيد علي الحسيني الميلاني ، ص 390 .

[75] عارضة الاحوذى في شرح الترمذي ، ج 9 ، ص 69 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة ، ص 393 .

[76] فتح الباري ، ج 13 ، ص 181 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة ، ص 394

[77] منهاج السنة ، ج 8 ، ص 238 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة ، ص 394 .

[78] المصدر السابق .

[79] تاريخ ابن عساكر ، ج 3 ، ص 402 ، نقلاً عن : الامام الصادق والمذاهب الاربعة ، أسد حيدر ، دار الكتاب العربي ، ج 1 ، ص 32 .

[80] الامام الصادق والمذاهب الاربعة ، ج 1 ، ص 33 .

[81] منهاج السنة ، ج 8 ، ص 238 ، نقلاً عن دراسات في منهاج السنة ، ص 394 .

[82] ينابيع المودة ، ج 3 ، ص 105 ، باب 77 .

[83] تاريخ الخلفاء ، ص 12 .

[84] الاصول العامة للفقهاء المقارن ، ص 180 .

[85] المائدة : 101 .

[86] التكوير : 24 .

[87] النحل : 44 .

[88] المائدة : 67 .

[89] الانفال : 30 .

[90] الصف : 8 .

المحور الثالث

تعيين مصاديق الانمة

الواقع أنّ الاحاديث التي أشارت إلى أنّ الخلفاء اثنا عشر ، عيّنت بنحو واضح ، من هم أولئك الخلفاء ؟ وهذا هو مقتضى القاعدة في المسألة ، لأنّه من الطبيعي عندما يصرح الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) بأنّ خلفاءه من بعده اثنا عشر ، لا بدّ أن يذكرهم مباشرة أو بعد السؤال على الأقل ، وهذا ما نجده واضحاً في التراث الشيعي الذي تكلم عن هذه الحقيقة بجلاء ، ونحاول هنا الوقوف على بعض النماذج من هذه الروايات الكثيرة في المقام .

عن سلمان قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « الانمة بعدي اثنا عشر ، ثمّ قال : كلّهم من قريش ، ثمّ يخرج قائمنا فيشفي صدور قوم مؤمنين ، ألا إنّهم أعلم منكم فلا تعلموهم ، ألا إنّهم عترتي ولحمي ودمي ، ما بال أقوام يؤذونني فيهم ، لا أنالهم الله شفاعتي » ([91]).

وعن أبي زر ، قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : « من أحبّتي وأهل بيتي ، كنّا نحن وهو كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى ، ثمّ قال : أخي خير الاوصياء وسبطي خير الاسباط ، وسوف يخرج الله تبارك وتعالى من صلب الحسين انمة أبرار ، ومنا مهدي هذه الامّة ، قلت : يا رسول الله ، وكم الانمة بعدك ؟ قال : عدد نقباء بني إسرائيل » ([92]).

وبسند آخر ، عن أبي زر (رحمه الله) ، عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث طويل ، وفيه : « ... وبعلمها سيّد الوصيين وابنيها الحسين والحسين سيّد شباب أهل الجنّة ، وإنّهم إمامان إن قاما أو قعدا ، وأبوهما خيرٌ منهما ، وسوف يخرج من صلب الحسين تسعة من الانمة معصومون قوامون بالقسط ، ومنا مهدي هذه الامّة .

قال : قلت : يا رسول الله فكم الانمة بعدك ؟ قال : عدد نقباء بني إسرائيل » ([93]).

وعن أيوب الانصاري ، قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : « أنا سيّد الانبياء ، وعلي سيّد الاوصياء ، وسبطي خير الاسباط ، ومنا الانمة المعصومون من صلب الحسين ، ومنا مهدي هذه الامّة .

فقام إليه أعرابي فقال : يا رسول الله ، كم الانمة من بعدك ؟ قال : عدد الاسباط وحواري عيسى ونقباء بني إسرائيل » ([94]).

وهذا الذي ذكرته الاحاديث ينسجم تماماً مع الخصوصيات الاربع التي استفدناها في البحث السابق ، وهي أنّهم اثنا عشر ، وأنهم معيّنون بالنص ، وموجودون ما بقي الدين قائماً ، وكلّهم من قريش ، وبهذا تجد تلك الروايات تفسيرها الصحيح ، بلا حاجة إلى ما تكلفه السيوطي وغيره في بيان المراد منها .

على أنّنا في غنى عن هذه الروايات وغيرها ، بحديث الثقلين نفسه ، فهو الذي ترك بأيدينا الضابط الذي على أساسه يمكن معرفة خلفائه (صلى الله عليه وآله) ، حيث أنّه جعل المقياس فيهم هو عدم افتراقهم عن القرآن الكريم حتّى يردا عليه الحوض ، إذن فلنمسك بأيدينا هذا المقياس ونسبر به الواقع السلوكي لجميع من تسموا بالانمة والخلفاء بعده (صلى الله عليه وآله) ، لنقف على الاجدر بانطباق هذا الضابط عليه .

ومن هنا لا بدّ من الوقوف على بعض دلالات هذا النص المتواتر بين المسلمين :

1 - دلالاته على عصمة العترة

وبيان ذلك يتم من خلال النقاط التالية :

أولاً : « افترانهم بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتصريحه بعدم افتراقهم عنه ، ومن البديهي أن صدور أية مخالفة للشريعة سواء كانت عن عمد أو سهو ، أم غفلة ، تعتبر افتراقاً عن القرآن في هذا الحال ، وإن لم يتحقق انطباق عنوان المعصية عليها أحياناً ، كما في الغافل والساهي ، والمدار في صدق عنوان الافتراق عنه ، عدم مصاحبته لعدم التقيد بأحكامه ، وإن كان معذوراً في ذلك ، فيقال فلان مثلاً ، افترق عن الكتاب وكان معذوراً في افتراقه عنه ، والحديث صريح في عدم افتراقهما حتى يردا الحوض .

ثانياً : على أن تجويز الافتراق عليهم بمخالفة الكتاب وصدور الذنب منهم ، تجويز للكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي أخبر عن الله عزّ وجلّ بعدم وقوع افتراقهما ، وتجويز الكذب عليه متعمداً في مقام التبليغ والاختبار عن الله في الاحكام وما يرجع إليها من موضوعاتها وعللها ، مناف لافتراض العصمة في التبليغ ، وهي ممّا أجمعت عليها كلمة المسلمين على الاطلاق ، حتى نفاة العصمة بقول مطلق .

يقول الشوكاني بعد استعراضه لمختلف مبانيهم في عصمة الانبياء : « وهكذا وقع الاجماع على عصمتهم بعد النبوة ، من تعمد الكذب في الاحكام الشرعية ، لدلالة المعجزة على صدقهم ، وأما الكذب غلطاً ، فمنعه الجمهور وجوّزه القاضي أبو بكر » ([95]).

« ولا إشكال في أن الغلط لا يتأتى في هذا الحديث لاصرار النبي (صلى الله عليه وآله) على تبليغه في أكثر من موضع ، وإلزام الناس بمؤداه ، والغلط لا يتكرر عادة » ([96]).

2 - دلالة على تميزهم بالعلم بكل ما يتصل بالشريعة وغيرها:

كما يدل على ذلك افترانهم بالكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، لقوله تعالى : (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) ([97]) ، وقوله تعالى : (وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ) ([98]).

لذا ورد عنه (صلى الله عليه وآله) : « لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم » ([99]).

يقول ابن حجر : تنبيه : « سمى رسول الله (صلى الله عليه وآله) القرآن وعترته ، وهي بالمتناة الفوقية ، الاهل والنسل والرهط الادنون ، الثقليين ، لأن الثقل كل نفيس خطير مصون ، وهذان كذلك ، إذ كل منهما معدن العلوم اللدنية ، والاسرار والحكم العلية ، والاحكام الشرعية ، ولذا حثّ (صلى الله عليه وآله) على الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم ، وقال : « الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت » ، وقيل : سميا ثقليين لثقل وجوب رعاية حقوقهما .

ثم إن الذي وقع الحث عليهم منه ، إنما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله ، إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض ، ويؤيده الخبر السابق ، « ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم » ، وتميزوا بذلك عن بقية العلماء ، لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وشرفهم بالكرامات الباهرة ، والمزايا المتكاثرة ، وقد مرّ بعضها » ([100]).

إذن ، فهذا النص المبارك يثبت لنا ضرورة عصمة العترة ، مضافاً إلى عشرات الأدلة القرآنية والروائية التي لا مجال للوقوف عليها في هذه العجالة .

نعم ، قد يقال : إن العترة عنوان عام يمكن أن يشمل غير الانمة الاثني عشر ، الذين تمسك بهم الشيعة الامامية ، لأنه كما ثبت في محله ، أن القضية لا تثبت موضوعها ، ومن هنا لا يمكن التمسك بهذا الحديث وما يشابهه لتعيين مصاديق أحاديث "الخلفاء اثنا عشر" ; لذا أشكل أبو زهرة في هذا الحديث بقوله : « وبعد التسليم بصحة اللفظ نقول : بأنه لا يقطع ، بل لا يعين من ذكروهم من الانمة الستة المنفق عليهم عند الامامية الفاطميين ، وهو لا يعين أولاد الحسين دون أولاد الحسن ، كما لا يعين واحداً من هؤلاء بهذا الترتيب » ([101]).

ولكن هناك طرق عديدة من خلالها يمكن تعيين مصاديق العترة وأهل البيت نعرضها بإيجاز :

الطريق الأول : وهو الطريق المباشر لتعيينهم من خلال الروايات المنقولة عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) ، والتي تنص عليهم بأسمائهم .

منها : ما ذكره في « ينابيع المودة » عن كتاب « فراند السمطين » بسنده عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : قدم يهودي يقال له نعتل ، فقال : يا محمد أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين ، فإن أجبتني عنها أسلمت على يدك .

قال : سل يا أبا عمارة .

فقال : يا محمد ، صف لي ربك .

فقال (صلى الله عليه وآله) : « لا يوصف إلا بما وصف به نفسه ، وكيف يوصف الخالق الذي تعجز العقول أن تدركه ، والالوهام أن تتاله ، والخطرات أن تجده ، والابصار أن تحيط به ، جلّ وعلا عما يصفه الواصفون...» - إلى أن قال السائل - : صدقت .

فأخبرني عن وصيكَ من هو ؟ فما من نبي إلا وله وصي ، وإنّ نبينا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون ، فقال (صلى الله عليه وآله) : « إنّ وصيّي علي بن أبي طالب ، وبعده سبطاي الحسن والحسين ، تتلوه تسعة أنمة من صلب الحسين » ، قال : يا محمد ، فسمّهم لي ، قال : « إذا مضى الحسين فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه الحسن ، فإذا مضى الحسن فابنه الحجة محمد المهدي » [102] .

ومنها عن الصادق (عليه السلام) ، عن أبيه ، عن آبائه (عليهم السلام) ، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « لما أسري بي إلى السماء ، أوحى إليّ ربّي جلّ جلاله ، فقال : يا محمد اطلعت على الارض اطلاعة ، فاخترتك منها ، فجعلتك نبياً ، وشققت لك من اسمي اسماً ، فأنا المحمود ، وأنت محمد ، ثمّ اطلعت الثانية ، فاخترت منها علياً ، وجعلته وصيكَ وخليفتك ، وزوج ابنتك ، وأبا ذريتك ، وشققت له اسماً من أسمائي ، فأنا العلي الاعلى وهو علي ، وخلقت فاطمة والحسن والحسين من نوركما ، ثمّ عرضت ولايتهم على الملائكة ، فمن قبلها كان عندي من المقرّبين ...

إلى أن تقول الرواية : يا محمد تحب أن تراهم ؟ قلت : نعم يا ربّ ، فقال عزّ وجلّ : ارفع رأسك ، فرفعت رأسي ، وإذ أنا بأنوار علي وفاطمة والحسن والحسين ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وموسى بن جعفر ، وعلي بن موسى ، ومحمد بن علي ، وعلي بن محمد ، والحسن بن علي ، ومحمد بن الحسن القائم في وسطهم كأنه كوكب دري ... إلخ » [103] .

وروايات المعراج التي تحدّثت عن هذه الحقيقة كثيرة جداً .

وعن جابر بن يزيد الجعفي ، قال : سمعت جابر بن عبد الله الانصاري يقول : « لما أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه محمد (صلى الله عليه وآله) : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) النساء : 59 قلت : يا رسول الله ، عرفنا الله ورسوله ، فمن أولو الامر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟ فقال (صلى الله عليه وآله) : « هم خلفائي يا جابر ، وأنمة المسلمين من بعدي ، أولهم علي بن أبي طالب ، ثم الحسن ، ثم الحسين ، ثم علي بن الحسين ، ثم محمد بن علي المعروف [في التوراة] بالباقر ، وستدركه يا جابر فإذا لقيته ، فأقرنه مني السلام ، ثم الصادق جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم علي بن موسى ، ثم محمد بن علي ، ثم علي بن محمد ، ثم الحسن بن علي ، ثم سمّي وكنّي حجة الله في أرضه ،

وبقيته في عباده ، ابن الحسن بن علي ، ذاك الذي يفتح الله (تعالى ذكره) على يديه مشارق الارض ومغاربها ، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه ، غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للايمان .

قال جابر: فقلت : يا رسول الله، فهل ينتفع الشيعة به في غيبته؟

فقال : [أي] والذي بعثني بالنبوة [يستضيئون بنوره ، وينتفعون بولايته في غيبته ، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللتها سحب .

يا جابر هذا من مكنون سِرِّ الله ، ومخزون علم الله ، فاكتمه إلا عن أهله .

قال جابر بن يزيد : فدخل جابر بن عبد الله الانصاري على علي بن الحسين (صلوات الله وسلامه عليه) ، فينما هو يحدثه ، إذ خرج محمد بن علي الباقر عليه من عند نسانه ، وعلى رأسه ذوابة وهو غلام ، فلما بصر به جابر ارتعدت فرائصه ، وقامت كل شعرة على بدنه ، ونظر اليه ملياً ، ثم قال له : يا غلام أقبل .

فأقبل .

ثم قال له : أدبر .

فأدبر ، فقال جابر : شمائل رسول الله ورب الكعبة .

ثم قام فدنا منه ، وقال له : ما اسمك يا غلام ؟

فقال : محمد .

قال : ابن من ؟

قال : ابن علي بن الحسين .

قال : يا بني فذلك نفسي ، فأنت إذاً الباقر ؟

قال : نعم .

قال (صلوات الله عليه) : فأبلغني ما حملك رسول الله صلى الله عليه وآله ؟

فقال جابر : يا مولاي ، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشرني بالبقاء إلى أن ألك ، وقال لي : إذ لقيته فأقرنه مني السلام .

فرسول الله يا مولاي يقرنك السلام .

فقال : أبو جعفر (صلوات الله عليه) : يا جابر ، على رسول الله ما دامت السموات والارض ، وعليك يا جابر كما بلغت ، السلام .

فكان جابر بعد ذلك يختلف إليه ويتعلم منه « [104] » .

وقد أحصى الصافي الكلبايكاني في كتابه (منتخب الاثر) أكثر من خمسين رواية في هذا المجال ، وقال بعد ذلك : « النصوص الواردة في ساداتنا الانمة الاثني عشر ، بلغت في الكثرة حدّاً ، لا يسعه مثل هذا الكتاب ، وكتب أصحابنا في الامامة وغيرها مشحونة بها ، واستقصاؤها صعب جدّاً » [105] .

الطريق الثاني : وهو طريق نقلي أيضاً ، ولكنّه طوي ، ونعني به : أنّ النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) يعين بعضاً من هؤلاء الانمة من بعده ، ثم يقوم كل واحد من هؤلاء بتعيين الخليفة الذي يأتي بعده وهكذا ، ومنها :

أ - الروايات الكثيرة التي نصّت على عصمة الامام علي (عليه السلام) وهي متواترة بين الفريقين ، مثل قوله (صلى الله عليه وآله) : « علي مع الحق والحق مع علي ، يدور معه حيثما دار » [106] ، وقوله (صلى الله عليه وآله) لعمرار : « يا عمّار

إن رأيت علياً قد سلك وادياً ، وسلك الناس وادياً آخر ، فاسلك مع علي ودع الناس ، إنه لن يدلك على ردى ، ولن يخرجك من هدى « [107]] .

من هنا قال أبو القاسم البجلي وتلامذته من المعتزلة : « لو نازع علي عقيب وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسل سيفه لحكنا بهلاك كل من خالفه وتقدم عليه ، كما حكنا بهلاك من نازعه حين أظهر نفسه ، ولكنّه مالك الامر وصاحب الخلافة ، إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق من ينازعه فيها ، وإذا أمسك عنها وجب علينا القول بعدالة من أغضى له عليها ، وحكمه في ذلك حكم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، لأنه قد ثبت عنه في الاخبار الصحيحة أنّه قال : علي مع الحق والحق مع علي ، يدور معه حيثما دار ، وقال له غير مرّة : حربك حربي وسلمك سلمي « [108]] .

لذا قال (عليه السلام) عن نفسه في مواضع متعدّدة من النهج : « إخواننا وأهل دعوتنا ، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله ... وأنّ الكتاب لمعي ، ما فارقتّه منذ صحبتّه « [109]] .

ونعلم جميعاً أنّه صحب الكتاب وهو دون العاشرة .

وقال أيضاً : « أيّها الناس ، إنّي قد بثت لكم المواعظ التي وعظ الانبياء بها أممهم ، وأديت إليكم ما أدت الاوصياء إلى من بعدهم ، وأدبتكم بسوطي ، فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواج فلم تستوسقوا ، لله أنتم ، أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق ، ويرشدكم السبيل « [110]] .

وقال أيضاً : « والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة « [111]] .

وقال أيضاً : « فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إن لم تفعل تمّ أمكنني الله منكم لاعدنّ إلى الله فيك ، ولاضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار « [112]] .

ثمّ إنّ الامام بعد أن ثبتت عصمته وإمامته من خلال تلك البيانات ، عرّف لامة أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ببيانات كثيرة في النهج ، نقف عند بعضها :

قال (عليه السلام) : « لا يقاس بأل محمّد صلى الله عليه وآله ، من هذه الامّة أحد ، ولا يستوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، إليهم يفى الغالي ، وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصيّة والوراثة « [113]] .

ثمّ قال (عليه السلام) : « انظروا أهل بيت نبيكم ، فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى ، فإن لبدوا فالدوا ، وإن نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلّوا ، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا « [114]] .

وقال أيضاً : « ألا أنّ مثل آل محمّد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء ، إذا خوى نجم ، طلع نجم ، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع ، وأراكم ما كنتم تأملون « [115]] .

وقال أيضاً : « فأين تذهبون ، وأنى توفكون ، والاعلام قائمة ، والآيات واضحة ، والمنار منصوبة ، فأين يتاه بكم ، وكيف تعمهون ، وبينكم عترة نبيكم ، وهم أزمّة الحقّ ، وأعلام الدين ، وألسنة الصدق ، فانزلوهم بأحسن منازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم العطاش « [116]] .

مع كلّ هذه النصوص وعشرات غيرها ، تأتي بعض الاقلام لتقول : إنّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) وعلى رأسهم الامام علي ابن أبي طالب ، لم يدعوا لانفسهم العصمة ، ولم يقولوا ما قالته الشيعة عنهم ، وإنّما هي من اختلاقات فلاسفة الشيعة ومتكلمهم ، والامر كما ترى .

ب - حديث الكساء : رواه الفريقان بطرق كثيرة وأساليب مختلفة ، وأماكن متعدّدة أشرنا إليها في كتاب العصمة [117]] .

ويمكن مراجعته تفصيلاً في كتاب آية التطهير([118]).

وقد رواه مسلم في صحيحه ، والحاكم في مستدرکه ، والبيهقي في سننه الكبرى ، وكلّ من الطبري وابن الاثير والسيوطي في تفاسيرهم ، وغيرهم كثير ، فقد ورد عن عائشة قالت : خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) غداً وعليه مرط مرحل من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين ، فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة ، فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »([119]).

ويقول الألويسي في هذا المجال : «وأخبار إدخاله - صلى الله عليه وسلم - علياً وفاطمة وابنيهما - رضي الله تعالى عنهم - تحت الكساء ، وقوله - عليه الصلاة والسلام - : « اللهم هؤلاء أهل بيتي » ودعائه لهم ، وعدم إدخال أم سلمة أكثر من أن تحصي ، وهي مخصّصة لعموم أهل البيت ، بأي معنى كان البيت ، فالمراد بهم من شملهم الكساء ، ولا يدخل فيهم أزواجه صلى الله عليه وسلم»([120]).

وقال الرازي في تفسيره الكبير في ذيل قوله تعالى : (قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (الشورى 23) .

وأنا أقول : «آل محمد (صلى الله عليه وسلم) هم الذين يؤول أمرهم إليه ، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل ، كانوا هم الآل ، ولا شك أنّ فاطمة وعلياً والحسن والحسين ، كان التعلّق بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أشدّ التعلّقات ، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر ، فوجب أن يكونوا هم الآل .

وأما غيرهم ، فهل يدخلون تحت لفظ الآل ، فمختلف فيه»([121]).

ويقول بعض الاعلام المعاصرين : «والذي يبدو أن الغرض من حصرهم تحت الكساء ، وتطبيق الآية - آية التطهير - عليهم ، ومنع حتّى أم سلمة من الدخول معهم ، كما ورد في روايات كثيرة ، هو التأكيد على اختصاصهم بالآية ، وقطع الطريق على كل ادعاء بشمولها لغيرهم .

وكأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قد خشى أن يستغل بعضهم قربه منه ، فيزعم شمول الآية له ، فحاول قطع السبيل عليهم بالتأكيد على تطبيقها على هؤلاء بالخصوص ، وتكرار هذا التطبيق ، حتّى تألفه الاسماع ، وتطمئن إليه القلوب»([122]).

وهذا ما ورد في روايات عديدة أشار إليها السيوطي في الدر المنثور ، قال : «أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء - رضي الله عنه - قال : حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وآله - ثمانية أشهر بالمدينة ، ليس من مرّة يخرج إلى صلاة الغداة ، إلّا أتى إلى باب علي - رضي الله عنه - فوضع يده على جنبتي الباب ، ثمّ قال : الصلاة الصلاة ، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»([123]).

ج - خروجه إلى المباهلة : روى مسلم في صحيحه ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، قال : أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال : ما يمنعك أن تسب أبا تراب ؟ قال : أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فلن أسبّه ، لأن يكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم ، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول حين خلفه في بعض مغازيه ، فقال له علي : يا رسول الله خلقتني مع النساء والصبيان ؟ فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) : «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنّه لا نبي بعدي » ؟ ، وسمعته يقول يوم خيبر : « لا أعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله » ، قال : فتناولنا لها ، فقال : « ادعوا لي علياً » ، فأتي به أرمذ العين ، فبصق في عينه ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله على يديه ، ولما نزلت هذه الآية : (فَمَنْ تَعَالَوْا تَدْعُوا أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَلِمْ)([124]) دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي » .

وروى ذلك الترمذي في صحيحه ، وأبو المؤيد في كتاب فضائل علي ، وأبو نعيم في الحلية ، والحموي في الشافعي في فراند السمطين .

وفي قوله (صلى الله عليه وآله) : « اللهم هؤلاء أهل بيتي » ، دلالة واضحة على أن هؤلاء لا غيرهم أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) وعترته ، لما ينطوي عليه الكلام من القصر والاختصاص .

وعلى كل حال ، فإن خلاصة هذا الطريق ، أنه بعد أن تعين عدد من المعصومين من أهل البيت في الخطوة الأولى ، كما تم لعلي وفاطمة والحسن والحسين ، يأتي دور هؤلاء لتعيين كل سابق ، الامام اللاحق له .

وهذا ما نجده واضحاً في كثير من الروايات التي عين فيها كل سابق اللاحق له ونص عليه .

لا يقال : إن بعض هذه الروايات إما هي ضعيفة السند ، وعلى فرض صحتها فهي آحاد ، لا يمكن الاعتماد عليها في الاصول الاعتقادية كمبحث الامامة .

فإنه يقال : حتى لو سلمنا ما يقوله المستشكل ، فإنه لا نعلم على خصوص هذه الروايات لتعيين الانمة من السجادة (عليه السلام) إلى القائم (عليه السلام) ، وإنما يضاف إليها عشرات الروايات التي تحدتت عن أسمائهم جميعاً ، كما في الطريق الأول .

مضافاً إلى دليل آخر يمكن اعتماده في هذا المجال وهو الدليل التاريخي ، لاثبات إمامتهم ، وتوضيحه كما قرره أستاذنا الحكيم في الاصول العامة : « إن هؤلاء الانمة الاثني عشر ، قد ادعوا لانفسهم الامامة في عرض السلطات الزمنية ، واتخذوا من انفسهم ، كما اتخذهم الملايين من أتباعهم قادة للمعارضة السلمية للحكم القائم في زمنهم ، وكانوا عرضة للسجون والمراقبة ، وكثير منهم قتل بالسم ، وفيهم من استشهد في ميدان الجهاد على أيدي القائمين بالحكم ، وفي هؤلاء من تولّى الامامة وهو ابن عشرين سنة كالحسن العسكري (عليه السلام) ، بل فيهم من تولّى منصبها وهو ابن ثمان كالامامين الجواد والهادي (عليهما السلام) .

ومن المعروف عن الشيعة ادعواهم العصمة لانتمهم الملازمة لدعوى الاحاطة في شؤون الشريعة جميعها ، بل ادعوا لاعلمية في جميع الشؤون وهم انفسهم صرحوا بذلك» ([125]) .
ومن كلماتهم في ذلك :

1 - عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث يقول : « نحن شجرة النبوة ، ومحط الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومعادن العلم ، وينابيع الحكمة » ([126]) .

2 - وعنه (عليه السلام) أيضاً : « أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا ، كذباً وبغياً ، أن رفعنا الله ووضعهم ، وأعطانا وحرّمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يستعطي الهدى ، ويستجلى العمى ، إن الانمة من قريش ، غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم ، ولا تصلح الولاية من غيرهم » ([127]) .

3 - وقال الامام السجادة (عليه السلام) : « وذهب آخرون إلى التخصيص في أمرنا ، واحتجوا بمتشابه القرآن ، فتأولوه بأرناهم ، واتهموا مآثور الخير فينا - إلى أن قال - : وإلى من يفرع خلف هذه الامة ، وقد درست أعلام الملة ، ودانت الامة بالفرقة والاختلاف ، يكفر بعضهم بعضاً ، والله تعالى يقول : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) ([128])
فمن الموثوق به على إبلاغ الحجة ، وتأويل الحكمة ، إلا أهل الكتاب ، وأبناء انمة الهدى ، ومصايح الدجى ، الذين احتج الله بهم على عباده ، ولم يدع الخلق سدى من غير حجة ، هل تعرفونهم أو تجدونهم ، إلا من فروع الشجرة المباركة ، وبقياء الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ([129]) .

4 - وقال الامام الصادق (عليه السلام) : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْضَحَ بِأَنْمَةِ الْهُدَى مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا عَنْ دِينِهِ ، وَأَبْلَجَ بِهِمْ عَنْ سَبِيلِ مَنْهَاجِهِ ، وَفَتَحَ بِهِمْ عَنْ بَاطِنِ يَنْابِيعِ عِلْمِهِ - إِلَى أَنْ يَقُولَ - فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَخْتَارُهُمْ لَخَلْقِهِ ، مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَقْبِ كُلِّ إِمَامٍ ، يَصْطَفِيهِمْ لَذَلِكَ ، وَيَجْتَبِيهِمْ وَيَرْضَى بِهِمْ لَخَلْقِهِ ، وَيَرْضِيهِمْ ، كُلِّ مَا مَضَى مِنْهُمْ إِمَامٌ نَصَبَ لَخَلْقِهِ مِنْ عَقْبِهِ إِمَاماً ، عِلْماً بَيْتاً ، وَهَادِياً نَبِيّاً ، وَإِمَاماً قِيَمًا ، وَحِجَّةً عَالِماً ، أَنْمَةً مِنَ اللَّهِ ، يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ، حَجَّجَ اللَّهُ وَدَعَاتِهِ وَرِعَاتِهِ عَلَى خَلْقِهِ ...

جعلهم حياةً للآنام ، ومصائباً للظلام ، ومفاتيح للكلام ، ودعائم للاسلام ، جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها . «[130]» .

5 - وقال الامام الرضا (عليه السلام) : « إِنَّ الْإِمَامَةَ هِيَ مَنْزِلَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِرْثُ الْأَوْصِيَاءِ ، إِنَّ الْإِمَامَةَ خِلَافَةُ اللَّهِ وَخِلَافَةُ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) ، وَمَقَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمِيرَاثُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، إِنَّ الْإِمَامَةَ زَمَامُ الدِّينِ ، وَنِظَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَصَلَاحُ الدُّنْيَا ، وَعَزُّ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ الْإِمَامَةَ أَسُّ الْإِسْلَامِ النَّامِي ، وَفِرْعَةُ السَّامِيِّ - إِلَى أَنْ يَقُولَ - الْإِمَامُ وَاحِدٌ دَهْرُهُ ، لَا يَدَانِيهِ أَحَدٌ ، وَلَا يَعَادِلُهُ عَالِمٌ ، وَلَا يَوْجِدُ مِنْهُ بَدَلَ ، وَلَا لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ ، مَخْصُوصٌ بِالْفَضْلِ كُلِّهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ لَهُ وَلَا اِكْتِسَابٍ ، بَلْ اِخْتِصَاصٌ مِنَ الْمَفْضَلِ الْوَهَّابِ » « أَتَنْظُرُونَ أَنْ ذَلِكَ يَوْجِدُ فِي غَيْرِ آلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، كَذَّبْتَهُمْ وَاللَّهُ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَنْتَهُمُ الْإِبَاطِيلُ ، فَارْتَقُوا مَرْتَقًا صَعِبًا دَحْضًا ، تَزَلُ إِلَى الْحَضِيضِ أَقْدَامُهُمْ ، رَامُوا إِقَامَةَ الْإِمَامِ بِعُقُولِ حَائِرَةٍ بَانِرَةٍ نَاقِصَةٍ ، وَأَرَءَ مُضَلَّةً ، فَلَمْ يَزِدَادُوا مِنْهُ إِلَّا بَعْدًا ، وَلَقَدْ رَامُوا صَعِبًا ، وَقَالُوا إِفْكَأً ، وَضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ... » « وَأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمُورِ عِبَادِهِ ، شَرَحَ صَدْرَهُ لِذَلِكَ وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنْابِيعَ الْحِكْمَةِ ، وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ الْإِلَهَامًا ، فَلَمْ يَعِيَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ ، وَلَا يَحِيرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ ، فَهُوَ مَعْصُومٌ مُؤَيَّدٌ ، مُوَفَّقٌ مُسَدَّدٌ ، قَدْ أَمِنَ مِنَ الْخَطَايَا وَالزَّلَلِ وَالْعَثَارِ ، يَخْصَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ حِجَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَشَاهِدَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُوْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » «[131]» .

ونظير هذه الاقوال كثير في كلام أنمة أهل البيت (عليهم السلام) .

من هنا قد يقال : «أما كان بوسع السلطة وهي تملك ما تملك من وسائل القمع ، أن تقضي على هذه الجبهة من المعارضة ذات الدعاوى العريضة من أيسر طرقها ، وذلك بتعريض أنمتها لشيء من الامتحان العسير في بعض ما يملكه العصر من معارف ، وبخاصة ما يتصل بغوامض الفقه والتشريع ، ليسقط دعاؤها في الاعلمية من الاساس ، أو يعرضهم إلى شيء من الامتحان في الاخلاق والسلوك ليسقط ادعاؤهم العصمة .

وإذا كان في الكبار منهم عصمة وعلم ، نتيجة دربة ومعاة ، فما هو الشأن في ابن عشرين عاماً أو ابن ثمان ، فهل تملك الوسائل الطبيعية تعليلاً لتمثلهم لذلك كله .

ولو كان هؤلاء الانمة في زوايا أو تكايا ، وكانوا محجوبين عن الرأي العام كما هو الشأن في أنمة الاسماعيلية ، أو بعض الفرق الباطنية ، لكان لاضفاء الغموض والمنافبية على سلوكهم من الاتباع مجال ، ولكن ما نصنع وهم مصحرون بأفكارهم وسلوكهم وواقعهم ، اتجاه السلطة وغيرها من خصومهم في الفكر ، والتأريخ حافل بمواقف السلطة منهم ومحاربتهم لأفكارهم ، وتعريضهم لمختلف وسائل الاغراء والاختبار ، ومع ذلك فقد حفل التأريخ بنتائج اختباراتهم المختلفة وسجلها باكبارة .

ولقد حدثت المؤرخون عن كثير من هذه المواقف المحرجة ، وبخاصة مع الامام الجواد ، مستغلين صغر سنه عند تولي الامامة .

وحتى لو افترضنا سكوت التأريخ عن هذه الظاهرة ، فإن من غير الطبيعي أن لا تحدث أكثر من مرة ، تبعاً لتكرار الحاجة إليها ، وبخاصة أن المعارضة كانت على أشدها في العصور العباسية .

وطريقة إعلان فضيحتهم بإخراج أنمتهم فيما يدعونه من علم واستقامة سلوك ، وإبراز سخفهم لاحتضانهم أنمة بهذا السنّ وهذا المستوى لو أمكن ذلك ، أيسر بكثير من تعريض الامة إلى حروب قد يكون الخليفة نفسه من ضحاياها ، أو تعريض هؤلاء الانمة إلى السجون والمراقبة أو المجاملة أحياناً ...

وإذا كان للصدفة - وهي مستحيلة - مجالها في امتحان ما ، بالنسبة إلى شخص ما ، فليس لها موقع بالنسبة إليه في مختلف المجالات ، فضلاً عن تكررهما بالنسبة إلى جميع الانمة ، صغارهم وكبارهم ، كما يحدث في ذلك التاريخ .

وأظنّ أنّ في هذه الاعترافات التي ذكرناها مجتمعة ما يعني عن استيعاب كلّ ما ذكر في تشخيص المراد من أهل البيت «[132]» .



الهوامش

- [91] كفاية الاثر ، ص 44 ، باب ما جاء عن سلمان الفارسي .
- [92] كفاية الاثر ، ص 35 ، باب ما جاء عن أبي ذر .
- [93] كفاية الاثر ، ص 36 - 38 .
- [94] كفاية الاثر ، ص 113 - 114 .
- [95] إرشاد الفحول ، ص 34 .
- [96] الاصول العامة للفقهاء المقارن ، ص 166 .
- [97] الانعام : 38 .
- [98] النحل : 89 .
- [99] نوازل الاخبار فيما يتعلق بأصول الدين ، تأليف المحدث الكبير المولى محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني ، تحقيق مهدي الانتصاري ، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي ، إيران ، ص 127 .
- [100] الصواعق المحرقة ، مطبعة دار الطباعة المحمدية بمصر ، ص 149 .
- [101] الامام الصادق ، ص 199 .
- [102] منتخب الاثر ، ص 97 ، الباب الثامن ، فيما يدل على الانمة الاثني عشر بأسمانهم .
- [103] إكمال الدين ، ج 1 ، ص 252 ، باب 23 ، ج 2 .
- [104] إعلام الوری بأعلام الهدی ، أمين الاسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، صححه وعلق عليه : علي أكبر الغفاري ، ص 375 ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ; تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة ، تأليف المفسر الكبير السيد شرف الدين علي الحسيني الاسترآبادي الغروي ، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ، ص 141 .
- [105] منتخب الاثر ، ص 145 .
- [106] شرح نهج البلاغة ، ج 18 ، ص 72 ، باب 77 .
- [107] كنز العمال ، ج 11 ، ص 613 - 614 ، ح 32972 .
- [108] شرح نهج البلاغة ، ج 2 ، ص 297 ، باب 37 .

- [109] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 122 .
- [110] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 182 .
- [111] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 16 .
- [112] نهج البلاغة ، رسائل الامام ، رسالة رقم 41 .
- [113] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 2 .
- [114] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 97 .
- [115] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 100 .
- [116] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 87 .
- [117] العصمة : محاضرات السيد كمال الحيدري ، بقلم محمد القاضي ، ص 199 - 228 .
- [118] آية التطهير في أحاديث الفريقين ، ج 2 ، ص 159 - 312 .
- [119] صحيح مسلم ، ج 7 ، ص 130 ؛ مستدرک الحاكم ، ج 3 ، ص 147 ؛ سنن البيهقي ، ج 2 ، ص 149 ؛ تفسير الطبري ، ج 22 ، ص 5 ؛ الدر المنثور ، ج 5 ، ص 198 ؛ تفسير ابن كثير ، ج 3 ، ص 485 .
- [120] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ج 22 ، ص 14 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- [121] التفسير الكبير ، ج 27 ، ص 166 .
- [122] الاصول العامة للفقهاء المقارن ، ص 156 .
- [123] الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، دار الفكر ، ج 6 ، ص 606 .
- [124] آل عمران: 61 .
- [125] الاصول العامة للفقهاء المقارن ، ص 181 .
- [126] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 109 .
- [127] نهج البلاغة ، الخطبة رقم 144 .
- [128] آل عمران: 106 .
- [129] كشف الغمة ، ج 2 ، ص 99 .
- [130] الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 203 ، باب نادر وجامع في فضل الامام وصفاته ، ح 2 .
- [131] الاصول من الكافي ، ج 1 ، ص 200 ، ح 1 .
- [132] الاصول العامة للفقهاء المقارن ، ص 182 .

المحور الرابع

المهدي ، هل هو حي ، أم سيولد بعد ذلك ؟

تعتبر مسألة الامام المهدي (عجل الله فرجه) من المسائل الاساسية في بحث الامامة الخاصة ، من هنا ورد التركيز عليها في التراث الشيعي ، بما يناسب موقعها المهم هذا .

كما إن فكرة مجيء المصلح في آخر الزمان ، فكرة لا خلاف عليها بين علماء المسلمين عامة ، حيث اتفقت كلمتهم إلا من شد منهم ، على أنه لا بد أن يأتي في آخر الزمان من يصلح الارض ، ويملاها قسطاً وعدلاً ، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

وممن صرح بأحاديث المهدي ، الترمذي في السنن ، والنيسابوري في المستدرک ، والبغوي في مصابيح السنة ، وابن الاثير في النهاية ، وابن تيمية في منهاج السنة ، والذهبي في تلخيص المستدرک ، والتفتازاني في شرح المقاصد ، والهيتمي في مجمع الزوائد ، والجزري الدمشقي في أسنى المطالب ، والصبان في إسعاف الراغبين ، والشوكاني وعشرات غيرهم ([133]) .

وصحح النيسابوري كثيراً من روايات المهدي ، وعبر عن طائفة منها بأنها صحيحة على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، كحديث أم سلمة حول خسف البيداء الذي يكون في زمن المهدي ([134]) ، وحديث ابن مسعود « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي ، يواطى اسمه اسمي » ([135]) ، وحديث ثوبان حول الرايات التي توطى للمهدي سلطانه ([136]) ، وحديث أبي سعيد : « المهدي مني أجلى الجبهة » ([137]) ، وحديث أبي سعيد أيضاً : « لا تقوم الساعة حتى تُملا الارض ظلماً وجوراً وعدواناً ، ثم يخرج من أهل بيتي من يملاها قسطاً وعدلاً » ([138]) ، وحديث محمد ابن الحنفية عن أبيه علي (عليه السلام) أنه قال ، وقد سألته رجل عن المهدي : « ذاك يخرج في آخر الزمان » ([139]) .

وعبر عن طائفة ثانية منها ، بأنها صحيحة على شرط مسلم ولم يخرجه ، كحديث أبي سعيد الخدري : « المهدي من أهل البيت » ([140]) ، وحديثه الآخر أيضاً : « تملأ الارض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي » ([141]) .

وعبر عن طائفة ثالثة بأنها صحيحة الاسناد ولم يخرجاه ، كحديث أبي سعيد : « ينزل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد ، فيبعث الله عز وجل من عترتي ، فيملا الارض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً » ([142]) ، وحديث أبي سعيد أيضاً : « يخرج في آخر أمتي المهدي » ([143]) .

بل صرح بعض الاعلام بتواتر هذه الاحاديث ، كالابري في مناقب الشافعي ، كما نقل ذلك المزني في تهذيبه ([144]) ، والقرطبي في التذكرة ([145]) ، والعسقلاني في تهذيب التهذيب ([146]) ، والسخاوي في فتح المغيب ، والسيوطي في مصباح الزجاجة ، والمتقي الهندي في البرهان في علامات مهدي آخر الزمان ، والبرزنجي في الاشاعة لاشراط الساعة ، وعشرات غير هؤلاء لا مجال لذكرهم في هذه العجالة ([147]) .

فمثلاً ، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب ، نقلاً عن الابري في ترجمة محمد بن خالد الجندي : «وقد تواترت الاخبار ، واستفاضت بكثرة روايتها ، عن المصطفى (صلى الله عليه وآله) في المهدي ، وأنه من أهل بيته ، وأنه يملك سبع سنين ، ويملا الارض عدلاً ، وأن عيسى (عليه السلام) يخرج فيساعده على قتل الدجال ، وأنه يوم هذه الامّة ، وعيسى خلفه» ([148]) .

وقال أيضاً : «وفي صلاة عيسى (عليه السلام) خلف رجل من هذه الامّة ، مع كونه في آخر الزمان ، وقرب قيام الساعة ، دلالة للصحيح من الاقوال (أن الارض لا تخلو من قائم لله بحجة) والله العالم» ([149]) .

ولم يقتصر الامر على المتقدمين من علماء المسلمين ، بل نجد ذلك واضحاً في كتابات المتأخرين أيضاً ، حيث صرح أهل التحقيق منهم ، بصحة أحاديث المهدي ، بل بتواترها ، كالشيخ محمد الخضر المصري ، والشيخ محمد فؤاد عبدالباقي ، وأبو الاعلى المودودي ، وناصر الدين الالباني ، والشيخ حمود التويجري ، والشيخ عبدالعزيز بن باز ، وغيرهم(150) .

وقال الشيخ منصور علي ناصف في كتابه (التاج الجامع للاصول) : «اشتهر بين العلماء سلفاً وخلفاً ، أنه في آخر الزمان ، لا بد من ظهور رجل من أهل البيت ، يسمى المهدي ، يستولي على الممالك الاسلامية ، ويتبعه المسلمون ، ويعدل بينهم ، ويؤيد الدين ، وبعده يظهر الدجال ، وينزل عيسى (عليه السلام) فيقتله ، أو يتعاون عيسى مع المهدي على قتله .

وقد روى أحاديث المهدي ، جماعة من خيار الصحابة ، وخرّجها أكابر المحدثين ، كأبي داود والترمذي ، وابن ماجه ... ، ولقد أخطأ من ضعف أحاديث المهدي كلها ، كابن خلدون وغيره»(151) .

وقال ابن باز : «فامر المهدي معلوم ، والاحاديث فيه مستفيضة ، بل متواترة متعاضدة ، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها ...

وهي متواترة تواتراً معنوياً ، لكثرة طرقها واختلاف مخرجها ، وصحابتها ، ورواتها ، وألفاظها ، فهي تدل على أن هذا الشخص الموعود به ، أمره حق ثابت وخروجه حق»(152) .

وقال أيضاً : «ولقد تأملت ما ورد في هذا الباب من أحاديث ، فاتضح لي صحة كثير منها ، كما بين ذلك العلماء الموثوق بعلمهم ودرائتهم ، كأبي داود ، والترمذي ، والخطابي ، ومحمد بن الحسين الأبري ، وشيخ الاسلام ابن تيمية ، والعلامة ابن القيم ، والشوكاني وغيرهم»(153) .

وقد ورد في معجم أحاديث الامام المهدي ما يقرب من (2000 رواية) عن رسول الله وأهل بيته تعرضت لمختلف شؤون المهدي ، كالأبحاث المتعلقة بمرحلة ما قبل ظهور المهدي (عجل الله فرجه) ، ثم ما يتعلق بشخصيته ، وحركة ظهوره ، وأحداثها ، ثم ما يكون بعده(154) .

إن ، فمسألة ظهور المهدي في آخر الزمان ، وأنه من أهل بيته (صلى الله عليه وآله) وعترته ، وأنه يملأ الارض قسطاً وعدلاً ، مما لا ريب فيها ، ولا مجال للتشكيك والتردد إزاءها ، وبتعبير الشيخ محمود التويجري : (أنه لا ينكر خروجه إلا جاهل أو مكابر)(155) .

ولقد أجاد بعض الكتاب المعاصرين حيث قال : «إن في عالم الدجل ، الكثير من الذين يدعون العلم ويتاجرون بالورع ، يريدون أن يجعلون تراثنا خالياً من الهواء ... ، لقد رفض فكرة المهدي رجال هناك ، أمثال (غولد سابهير) و(فلهوزن) فاتبعهم رجال هنا ، من منطلق أنهم يأكلون كل طعام يأتي من هناك»(156) .

نعم ، الذي وقع الخلاف فيه بين علماء المسلمين ، إنما هو في جهة أخرى من البحث ، هي : هل المهدي حي ؟ ولكنه غائب مستور ، كما ذهب إلى ذلك أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) تبعاً للروايات الصحيحة الواردة عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، أم سيولد بعد ذلك ؟ كما هو الاتجاه العام عند مدرسة الخلفاء .

من هنا لا بد أن ينصب الحديث على إثبات أن المهدي المنتظر حي أم لا ؟ ويمكن ذكر طريقتين في هذه العجالة لإثبات حياته : الطريق الاول : وهو الطريق غير المباشر ، إن صح التعبير ، وذلك بأن يقال : بعد أن ثبتت ضرورة استمرار وجود معصوم ، لا يفارق الكتاب ولا يفارقه الكتاب ، كما هو نص حديث الثقلين ، وأن هؤلاء المعصومين لا يتجاوز عددهم (12) كما هو مقتضى أحاديث (خلفائي من بعدي اثنا عشر) ، وأن هؤلاء هم علي والحسن والحسين وتسعة من صلب الحسين (عليهم

السلام) ينتهون بالمهدي المنتظر ، كما هو نص عشرات الروايات من الفريقين ، إذن يثبت بالدلالة الالتزامية العقلية ، أن الإمام الثاني عشر ، حيّ يرزق ، لكنّه غائب مستور عن الخلق لحكمة إلهية في ذلك .

ومن الواضح أنّ هذا الطريق يثبت لنا وجود إمام معصوم غائب ، هو المهدي المنتظر ابن الامام الحسن العسكري (عليه السلام) الذي ينتهي نسبه إلى الامام الحسين بن علي (عليهما السلام) .

ولكنّه لا يتعرّض لتفاصيل سنة ولادته ، وكيفية ذلك ، ومن هي أمه ، ومتى غاب ، وهل له غيبة واحدة أم أكثر .

إلا أنّ هذا لا يؤثر في أصل فكرة إثبات وجوده ، وأنه حيّ غائب ، لأنّ الضرورة النقلية وما يلزمها عقلاً تثبت هذه الحقيقة .

وهنا أود الإشارة إلى أن دعوى ضرورة وجود معصوم بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) بل عدم خلو كل زمان من معصوم ، ليست من مختصات مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) كما يتهم بعض الشيعة الامامية بذلك ، بل هناك جملة من أعلام المسلمين ، ذهبوا الى ضرورة وجود معصوم في كل زمان .

قال الفخر الرازي في تفسيره ، ذيل قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ) التوبة : 119 : « إنه تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين .

ومتى وجب الكون مع الصادقين ، فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إن المراد بقوله : (وَ كُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ) أي كونوا على طريقة الصادقين ، كما أن الرجل إذا قال لولده : كن معه الصالحين ، لا يفيد إلا ذلك .

سلمنا ذلك ، لكن نقول : إن هذا الامر كان موجوداً في زمان الرسول فقط ، فكان هذا أمراً بالكون مع الرسول ، فلا يدل على وجود صادق في سائر الأزمنة .

والجواب عن الاول : إن قوله (وَ كُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ) أمر بموافقه الصادقين ، ونهي عن مفارقتهم ، وذلك مشروط بوجود الصادقين .

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فدلّت هذه الآية على وجود الصادقين .

وقوله : إنه محمول على أن يكونوا على طريقة الصادقين ، فنقول : إنه عدول عن الظاهر من غير دليل .

قوله : هذا الامر مختص بزمان رسول الله عليه الصلاة والسلام :

قلنا : هذا باطل لوجوه :

الاول : أنه ثبت بالتواتر الظاهر من دين محمد (عليه الصلاة والسلام) أن التكليف المذكورة في القرآن متوجهة إلى المكلفين إلى قيام القيامة ، فكان الامر في هذا التكليف كذلك .

والثاني : أن الصيغة تتناول الاوقات كلها بدليل صحة الاستثناء .

والثالث : لما لم يكن الوقت المعين مذكوراً في لفظ الآية ، لم يكن حمل الآية على البعض أولى من حمله على الباقي ، فإما أن لا يحمل على شيء من الاوقات ، فيفضي الى التعطيل وهو باطل ، أو على الكل وهو المطلوب .

والرابع : وهو أن قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) أمر لهم بالتقوى ، وهذا الامر إنما يتناول من يصحّ منه أن لا يكون متقياً ، وإنما يكون كذلك لو كان جانز الخطأ فكانت الآية دالة على أنّ من كان جانز الخطأ ، وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العصمة ، وهم الذين حكم الله بكونهم صادقين .

فهذا يدلّ على أنه واجب على جائر الخطأ ، كونه مع المعصوم عن الخطأ ، حتى يكون المعصوم عن الخطأ مانعاً لجائر الخطأ عن الخطأ .

وهذا المعنى قائم في جميع الازمان ، فوجب حصوله في كل الازمان « [157] » .

وقال أيضاً في ذيل قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) النساء : 59 : « إن الله تعالى أمر بطاعة أولي الامر على سبيل الجزم في هذه الآية ، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع ، لا بد أن يكون معصوماً عن الخطأ ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ ، كان بتقدير إقدامه على الخطأ ، يكون قد أمر الله بمتابعته ، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ .

والخطأ لكونه خطأ منهياً عنه ، فهذا يفضي الى اجتماع الامر والنهي في الفعل الواحد ، بالاعتبار الواحد ، وإنه محال . فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الامر على سبيل الجزم ، وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم ، وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ .

فثبت قطعاً أن أولي الامر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوماً « [158] » .

نعم وقع الاختلاف في مصداق المعصوم وأنه من هو ؟ حيث ذهب أتباع أهل البيت ، تبعاً للآيات والروايات المتواترة ، كما تقدمت الإشارة إليها ، أن المقصود به هم أئمة أهل البيت (عليهم السلام) .

عن عبد الله بن عباس قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : « أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين ، مطهرون معصومون » [159] .

وذهب أتباع الخلفاء إلى أن المعصوم هو « إجماع الامة » .

قال الرازي : « لم لا يجوز أن يكون الصادق هو المعصوم الذي يمتنع خلو زمان التكليف عنه ، كما تقوله الشيعة .

قلنا : نحن نعترف بأنه لا بد من معصوم في كل زمان ، إلا أنا نقول : ذلك المعصوم هو مجموع الامة » [160] .

ثم قال : « ولا معنى لقولنا الاجماع حجة إلا ذلك » [161] .

وقد أوضح مراده من الاجماع بقوله : « مذهبنا أن الاجماع لا ينعقد إلا بقول العلماء الذين يمكنهم استنباط أحكام الله من نصوص الكتاب والسنة ، وهؤلاء هم المسمون بأهل الحل والعقد في كتب أصول الفقه » [162] .

وتبعه في ذلك محمد عبده في تفسير المنار ، حيث قال محمد رشيد رضا إن أستاذه « فكّر في هذه المسألة من زمن بعيد ، فانتهى به الفكر إلى أن المراد بأولي الامر ، جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين ...

فأهل الحل والعقد من المؤمنين ، إذا أجمعوا على أمر من مصالح الامة ، ليس فيه نص عن الشارع ، مختارين في ذلك غير مكرهين عليه بقوة أحد ولا نفوذه ، فطاعتهم واجبة ، ويصح أن يقال هم معصومون في هذا الاجماع ، ولذلك أطلق الامر بطاعتهم ، بلا شرط مع اعتبار الوصف والاتباع المفهوم من الآية » [163] .

الطريق الثاني : وهو الطريق المباشر ، ولكي يتضح ذلك جيداً لا بد من الإشارة إلى التسلسل الوارد في الروايات ، لاثبات هذه الظاهرة الالهية ، وهذا ما أحصاه بعض المحققين المعاصرين :

1 - الروايات التي تبشّر بظهوره (عجل الله فرجه) : 657 رواية

2 - الروايات التي تبين أنه يملا الارض عدلاً وقسطاً : 123 رواية

3 - الروايات التي تثبت أنّ المهدي المنتظر من أهل البيت : 389 رواية

4 - الروايات التي تبين أنه من ولد أمير المؤمنين (عليه السلام) : 214 رواية

- 5 - الروايات التي تثبت أنه من ولد فاطمة الزهراء (عليهما السلام) : 192 رواية
- 6 - الروايات التي تقول إنه من ولد الامام الحسين (عليه السلام) : 185 رواية
- 7 - الروايات التي تقول إنه التاسع من ولد الامام الحسين (عليه السلام) : 148 رواية
- 8 - الروايات التي تقول إنه من ولد علي بن الحسين (عليهما السلام) : 185 رواية
- 9 - الروايات التي تقول إنه من ولد محمّد الباقر (عليه السلام) : 103 رواية
- 10 - الروايات التي تقول إنه من ولد الصادق (عليه السلام) : 103 رواية
- 11 - الروايات التي تقول إنه السادس من ولد الصادق (عليه السلام) : 99 رواية
- 12 - الروايات التي تقول إنه من ولد موسى بن جعفر (عليهما السلام) : 101 رواية
- 13 - الروايات التي تقول إنه الخامس من ولد موسى بن جعفر (عليهما السلام) : 98 رواية
- 14 - الروايات التي تقول إنه الرابع من ولد علي بن موسى الرضا (عليه السلام) : 95 رواية
- 15 - الروايات التي تقول إنه الثالث من ولد محمّد بن علي التقي (عليه السلام) : 90 رواية
- 16 - الروايات التي تقول إنه من ولد علي الهادي (عليه السلام) : 90 رواية
- 17 - الروايات التي تقول إنه ابن أبي محمّد الحسن العسكري (عليه السلام) : 146 رواية
- 18 - الروايات التي تقول إنه الثاني عشر من الانمة وخاتمهم : 136 رواية
- 19 - في ولادته (عليه السلام) وتأريخها وبعض حالات أمه : 214 رواية
- 20 - في أن له غيبتين : 10 روايات
- 21 - في أن له غيبة طويلة : 91 رواية
- 22 - في أنه طويل العمر جداً : 318 رواية ([164])

ولا شك أن روايات بعض هذه العناوين ، قد تتداخل مع بعضها الآخر ، كما هو واضح .

لا يقال : بأن الاستدلال بروايات أنمة أهل البيت (عليهم السلام) لاثبات إمامة أنفسهم وبيان خصائصها ، وعدد الانمة ، وأن الثاني عشر حي ، ونحو ذلك ، إنما يلزم منه الدور ، لأن حجية أقوالهم موقوفة على إمامتهم وعصمتهم ، والمفروض أن إمامتهم متوقفة على حجية أقوالهم .

لاته يقال : إن هذا الاشكال مدفوع ببيانين :

الاول : أننا بعد أن أثبتنا عصمتهم بإحدى الطرق المتقدمة في المحور الثالث ، يمكن الاحتجاج والاستناد إلى أقوالهم لاثبات خصائص إمامة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) ، ولا يلزم محذور في المقام ، لاختلاف الموقوف عن الموقوف عليه ، فيرتفع الدور .

الثاني : أنه حتى لو لم تثبت عصمة أنمة أهل البيت (عليهم السلام) في الرتبة السابقة ، إلا أنه يمكن الاعتماد على رواياتهم ، وذلك من خلال أنهم رواة ثقات عن الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) ، فتكون حجية قولهم على حد حجية قول أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين قبل المسلمون عامّة ، الاعتماد على ما ينقلونه عن النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله) ، ولا أظن أن أحداً من المسلمين يتوقف في قبول مثل هذا الامر بشأن أهل البيت (عليهم السلام) سواء فيما صرحوا فيه من الروايات ، بأنهم ينقلونه عن الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله) ، أو التي لم يصرحوا فيها بذلك ، بل اكتفوا بالقاعدة الكلية التي بيّنوا فيها ، أن حديثهم هو حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، كما يقول الامام الصادق (عليه السلام) : « حديثي

حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدّي ، وحديث جدّي حديث الحسين ، وحديث الحسين حديث الحسن ، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين ، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله «[165]» .

وعلى هذا ، لم نجد أحداً من المسلمين ، شكك فيما نقل الامام الباقر أو الامام الصادق (عليهما السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع علمنا أنّ كثيراً من هؤلاء الذين سمعوا هذه الاحاديث من الائمة (عليهم السلام) وقبلوها ، ورووها ، لم يكونوا يعتقدون بعصمة الائمة (عليهم السلام) كاعتقاد الشيعة بهم ، غير أنّهم كانوا يعتقدون بأنّ هؤلاء في أعلى درجات التقى والعلم والوثاقة والصدق .

ولا يخفى أنّ هناك طرفاً أخرى لاثبات حياته (عجل الله فرجه) كشهادة من رآه ، وهم جمٌّ غفير ، وفيهم الثقات والعلماء ، فقد أحصى البعض (عدد من شاهد الامام المهدي ، فبلغوا زهاء 304 شخص) «[166]» . ولعلّ ما فاته أكثر ممّا ذكره .

من هنا جاءت اعترافات عدد كبير من علماء السنّة ، تبين ولادة المهدي (عجل الله فرجه) ، وقد صرح بعضهم ، أنّه هو الامام الموعود بظهوره في آخر الزمان.

وقد أحصى الشيخ مهدي فقيه إيماني في كتابه (المهدي في نهج البلاغة) ما يزيد عن (100) شخصيّة ، صرّحت بولادته (عجل الله فرجه) .

وكنموذج على ذلك ، ما ذكره العلامة الشعراني الحنفي في كتابه القيم (اليواقيت والجواهر) حيث قال : « فهناك يترقّب خروج المهدي (عليه السلام) وهو من أولاد الامام الحسن العسكري ، ومولده (عليه السلام) ليلة النصف من شعبان سنة خمسة وخمسين ومائتين ، وهو باق إلى أن يجتمع بعيسى بن مريم (عليه السلام) - إلى أن يقول - وعبارة الشيخ محي الدين في الباب السادس والستين وثلاثمائة من (الفتوحات) : واعلموا أنّه لا بدّ من خروج المهدي (عليه السلام) ، لكن لا يخرج حتّى تمتلئ الارض جوراً وظلماً ، فيملاها قسطاً وعدلاً ، ولو لم يكن من الدنيا إلا يوم واحد ، طول الله تعالى ذلك اليوم ، حتّى يلي ذلك الخليفة ، وهو من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله) من ولد فاطمة (رضي الله عنها) جدّه الحسين بن علي بن أبي طالب ، ووالده الحسن العسكري ، ابن الامام علي النقي بالنون ، ابن الامام محمد التقي بالتاء ، ابن الامام علي الرضا ، ابن الامام موسى الكاظم ، ابن الامام جعفر الصادق ، ابن الامام محمد الباقر ، ابن الامام زين العابدين علي ، ابن الامام الحسين ، ابن الامام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، اسمه اسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، يبايعه المسلمون بين الركن والمقام ...» [167] .

كانت هذه عبارة صاحب الفتوحات المكيّة ، كما ينقلها أحد أعلام القرن العاشر الهجري ، ولكن ممّا يؤسف له ، أنّ الايادي غير الامينة عبثت بهذا النص ، عندما طبعت الفتوحات ، فجاء النص بنحو آخر : « اعلم أيّدنا الله ، أنّ الله خليفة يخرج وقد امتلات الارض ظلماً وجوراً ، فيملاها قسطاً وعدلاً ، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد ، طول الله ذلك اليوم حتّى يلي هذا الخليفة من عترة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، من ولد فاطمة ، يواطئ اسمه اسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، جدّه الحسن بن علي بن أبي طالب ، يبايع بين الركن والمقام ... » [168] .

وبهذا تخرج مسألة الايمان بالمهدي المنتظر (عجل الله فرجه) ، وأنّه حيٌّ يرزق ، عن دائرة اتهام الشيعة باختلافها وإيجادها في الفكر الاسلامي .

وفي ختام هذه الدراسة ، لأبأس بالاشارة إلى نماذج من الروايات التي وردت في مسألة الامام المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف):

1 - عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال : « لما عرج بي إلى السماء السابعة ، ومنها إلى سدرة المنتهى ، ومن السدرة إلى حجب النور ، ناداني ربي جلّ جلاله : يا محمد أنت عبدي وأنا ربك ، فلي فاضع ، وإياي فاعبد ، وعلّي فتوكل ، وبي فتق ، فإني قد رضيت بك عبداً وحبیباً ورسولاً ونبيّاً ، وبأخيك عليّ خليفة وباباً ، فهو حجتي على عبادي ، وإمام لخليقي ، به يُعرف أوليائي من أعدائي ، وبه يُميز حزب الشيطان من حزبي وبه يُقام ديني وتحفظ حدودي ، وتتفد أحكامي ، وبك وبه وبالانمة من ولده أرحم عبادي وإماني .

وبالقائم منكم أعمّر أرضي بتسبيحي وتقديسي وتهليلي وتكبيرتي وتمجيدتي ، وبه أظهر الأرض من أعدائي ، وأورثها أوليائي ، وبه أجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمتي العليا ، وبه أحيي عبادي وبلادتي بعلمي ، وله أظهر الكنوز والخزائن والذخائر بمشيئتي ، وإياه أظهر على الاسرار والضمائر بإرادتي ، وأمدّه بملائكتي ، لتؤيده على إنفاذ أمري وإعلان ديني ، ذلك وليي حقاً ، ومهديّ عبادي صدقاً » ([169]) .

2 - وعنه أيضاً (صلى الله عليه وآله) : « القائم من ولدي ، اسمه اسمي ، وكنيته كنييتي ، وشمانله شمانلي ، وسنته سنتي ، يقيم الناس على ملتي وشريعتي ، ويدعوهم إلى كتاب الله عز وجل ، من أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، ومن أنكره في غيبته فقد أنكرني ، ومن كذبه فقد كذبنني ، ومن صدّقه فقد صدّقني ، إلى الله أشكو المكذّبين لي في أمره ، والجاحدين لقولي في شأنه ، والمضلين لامتي عن طريقته .

وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ([170]) .

3 - وعن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال للحسين (عليه السلام) : « التاسع من ولدك هو القائم بالحق ، المظهر للدين ، والباسط للعدل » .

قال الحسين (عليه السلام) : يا أمير المؤمنين ، وإن ذلك لكانن ؟

فقال علي (عليه السلام) : إي والذي بعث محمداً بالنبوة ، واصطفاه على جميع البرية ، ولكن بعد غيبة وحيرة ، لا يثبت فيها على دينه إلا المخلصون ، المباشرون لروح اليقين ، الذين أخذ الله عز وجل ميثاقهم بولايتنا ، وكتب في قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه » ([171]) .

4 - عن الامام الصادق (عليه السلام) قال : « القائم هو الخامس من ولد ابني موسى .

ذلك ابن سيدة الاماء ، يغيب غيبة يرتاب فيها المبطلون ، ثم يظهره الله عز وجل ، فيفتح الله على يديه مشارق الارض ومغاربها ، وينزل روح القدس عيسى ابن مريم (عليه السلام) فيصلي خلفه ، وتشرق الارض بنورها ، ولا تبقى في الارض بقعة عبد فيها غير الله ، إلا عبد الله فيها ، ويكون الدين كله لله ، ولو كره المشركون » ([172]) .

5 - وعن الامام الجواد (عليه السلام) : « إن القائم منّا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته ، ويطاق في ظهوره ، وهو الثالث من ولدي ، والذي بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) بالنبوة وخصنا بالامامة ، إنه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم ، حتى يخرج فيملا الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، وإن الله تبارك وتعالى يصلح أمره في ليلة ، كما أصلح أمر كليمة موسى (عليه السلام) إذ ذهب ليقتبس لاهله ناراً ، فرجع وهو رسول نبي » ([173]) .

6 - وعن النبي (صلى الله عليه وآله) : « أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل » ([174]) .

7 - وعن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « انتظرو الفرج ، ولا تياسوا من روح الله ، فإن أحب الاعمال إلى الله عز وجل انتظار الفرج » [[175]] .

8 - وعن الامام السجاد (عليه السلام) : « تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر من أوصياء رسول الله (صلى الله عليه وآله) والائمة بعده ، إن أهل زمان غيبته القائلون بإمامته ، المنتظرون لظهوره ، أفضل أهل كل زمان ، لان الله (تعالى ذكره) أعطاهم من العقول والافهام والمعرفة ، ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة ، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالسيف ، أولئك المخلصون حقاً ، وشيعتنا صدقاً ، والدعاة إلى دين الله سرأً وجهرأً » [[176]] .

9 - وعن الامام السجاد (عليه السلام) أيضاً : « طوبى لشيعتنا المتمسكين بحبلنا في غيبة قائمنا ، الثابتين على موالاتنا والبراءة من أعدائنا ، أولئك منا ونحن منهم ، قد رضوا بنا أئمة ، ورضينا بهم شيعة ، فطوبى لهم ، ثم طوبى لهم ، هم والله معنا في درجتنا يوم القيامة » [[177]] .

10 - عن أبي بصير ، قال : سمعت أبا جعفر محمد بن علي (عليه السلام) يقول : «والله لتميذن ، والله لتمحصن ، والله لتغربلن ، كما يغربل الزوان من القمح » [[178]] .

11 - عن الامام الرضا (عليه السلام) : « والله لا يكون ما تمدون إليه أعينكم ، حتى تمحصوا وتميزوا ، وحتى لا يبقى منكم إلا الاندر الاندر » [[179]] .

من هنا كان الثابتون على القول به في زمان غيبته أعز من الكبريت الاحمر ، كما قال خاتم الانبياء والمرسلين [[180]].

وبإضافة هذا المحور إلى المحاور الثلاثة المتقدمة ، ونعني بها : استمرار الامامة ، وعدد الائمة ، ومصاديقهم ، يتم بحث الامامة بشكل منطقي ، وننتهي من خلاله إلى نتائج قطعية لا ينكرها أي عالم باحث عن الحق والحقيقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

الهوامش

[[133]] سنن الترمذي ، ج 4 ، ص 505 ؛ مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 553 ؛ مصابيح السنة ، ص 488 ، ح 4199 ؛
النهاية في غريب الحديث والاثر ، ج 5 ، ص 254 ؛ منهاج السنة ، ج 4 ، ص 211 ؛ تلخيص المستدرک ، ج 4 ، ص 553 ؛
شرح المقاصد ، ج 5 ، ص 312 ؛ مجمع الزوائد ، ج 7 ، ص 313 - 314 ؛ أسنى المناقب في تهذيب أسنى المناقب ، ص
163 - 168 ؛ إسعاف الراغبين ، ص 145 ؛ الإذاعة ، ص 125 .

[[134]] مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 429 .

[[135]] مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 442 .

[[136]] مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 464 .

[[137]] مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 457 .

[[138]] مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 557 .

[[139]] مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 554 .

[[140]] مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 557 .

[[141]] مستدرک الحاكم ، ج 4 ، ص 558 .

- [142] مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 465 .
- [143] مستدرك الحاكم ، ج 4 ، ص 558 .
- [144] تهذيب الكمال ، ج 25 ، ص 146 / 5181 ، في ترجمة محمّد بن خالد الجندي .
- [145] التذكرة ، ص 701 .
- [146] تهذيب التهذيب ، ج 9 ، ص 201 / 125 ، في ترجمة محمّد بن خالد الجندي .
- [147] نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني ، ص 144 ؛ العطر الوردي لشرح القطر الشهدي للبلبيسي ، ص 45 .
- [148] تهذيب التهذيب ، ج 9 ، ص 201 / 125 ، ترجمة محمّد بن خالد الجندي .
- [149] فتح الباري ، ج 6 ، ص 385 .
- [150] نظرة في أحاديث المهدي ، ص 829 - مقال نشرته مجلّة التمدّن الاسلامي ، دمشق 1370 هـ - 1950م ؛ محاضرة نشرت في مجلّة الجامعة الاسلاميّة للشيخ محمّد فؤاد عبدالباقي ، العدد الثالث ، السنة الاولى ، 1388 هـ السعوديّة ؛ البيانات للمودودي ، ص 116 ؛ حول المهدي - مقال - 644 ، نشرته مجلّة التمدّن الاسلامي 1371 هـ - دمشق ؛ الاحتجاج بالاثّر على من أنكر المهدي المنتظر ، ص 70 - 71 ؛ الاحتجاج بالاثّر للتويجري : كلمة التصدير ، بقلم ابن باز ، ص 3 .
- [151] التاج الجامع للاصول ، ج 5 ، ص 341 .
- [152] كلمة ابن باز في آخر محاضرة : عقيدة أهل السنّة والاثّر ، مجلّة الجامعة الاسلاميّة ، المدينة المنورة 1388 .
- [153] الاحتجاج بالاثّر للتويجري ، كلمة التصدير لابن باز ، ص 3 .
- [154] معجم أحاديث الامام المهدي ، ج 1 ، ص 11 ، تأليف ونشر مؤسسة المعارف الاسلاميّة .
- [155] الاحتجاج بالاثّر ، ص 127 .
- [156] عقيدة المسيح الدجال في الاديان ، قراءة في المستقبل ، تأليف سعيد أيوب ، دار البيان للطباعة والنشر ، ص 361 .
- [157] التفسير الكبير ، للامام الفخر الرازي ، ج 16 ، ص 220 .
- [158] المصدر السابق ، ج 10 ، ص 144 .
- [159] إعلام الوری ، ص 375 .
- [160] التفسير الكبير ، ج 16 ، ص 220 - 221 .
- [161] المصدر السابق .
- [162] المصدر السابق ، ج 10 ، ص 150 .
- [163] تفسير القرآن الكريم ، الشهير بتفسير المنار ، للامام محمد رشيد رضا ، ج 5 ، ص 181 ، دار الفكر .
- [164] منتخب الاثر ، للصافي الكلبايكاني .
- [165] وسائل الشيعة ، ج 27 ، ص 83 ، باب 8 ؛ الكافي ، ج 1 ، ص 53 .
- [166] من هو المهدي ، أبو طالب التجليبي التبريزي ، ص 460 - 505 ، نقلاً عن كتاب دفاع عن الكافي ، تأليف ثامر هاشم حبيب العميدي ، ج 1 ، ص 562 .
- [167] اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التأريخ العربي ، بيروت - لبنان ، ج 2 ، ص 562 .

[168] الفتوحات المكيّة ، دار إحياء التراث العربي ، ج 3 ، ص 327 .

[169] أمالي الصدوق ، الباب 92 ، الحديث 4 .

[170] إكمال الدين ، الباب 39 ، الحديث 6 .

[171] المصدر السابق ، الباب 26 ، الحديث 16 .

[172] المصدر السابق ، الباب 33 ، الحديث 31 .

[173] المصدر السابق ، الباب 36 ، الحديث 1 .

[174] نواذر الاخبار ، ص 249 ، الحديث 1 .

[175] المصدر السابق ، ص 249 ، الحديث 3 .

[176] الاحتجاج ، تأليف : أبي المنصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ، ج 2 ، ص 50 ؛ إكمال الدين ، الباب (3)

الحديث 3 ؛ تفسير العياشي ، ج 2 ، ص 138 ، الحديث 50 .

[177] إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ، ج 3 ، ص 477 ، الباب 22 الحديث 168 ، نقلاً عن نواذر الاخبار ، للفيض

الكاشاني ، ص 250 ، الحديث 8 .

[178] كتاب الغيبة ، لمؤلفه الشيخ الاجل محمد بن إبراهيم النعماني ، ص 205 ، الباب 12 ، الحديث 8. الزوّان : هو ما

ينبت غالباً بين الحنطة ، وحبّه يشبه حبها إلا أنه أصغر . والقمح : البُر وهو حب معروف يطحن ويتخذ منه الخبز .

[179] المصدر السابق ، ص 208 ، الباب 12 ، الحديث 16 .

[180] نواذر الاخبار ، ص 226 ، باب غيبته ، الحديث 3 .